الأم

طبعـــة خاصـــة
تصدرها الدار المصرية اللبنانية
ضمن مشروع مكتبة الأسـرة

# الأم

## جراتسيا ديليدا

## نوبل عام / ١٩٢٦





ترجمة: د. محمود على مراد



الدار المصرية اللبنانية




# مهرجان القراءة للجميع ٩٨

## مكتبة الأسرة

## برعاية السيدة سوزان مبارك

## (الأعمال الإبداعية/نوبل)

الأم

جراتسيا ديليدا

ترجمة د. محمود على مراد

الغلاف

للفنان جمال قطب

الإشراف الفني:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الناشر : الدار المصرية اللبنانية

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

# مقدمة



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

## على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

**د. سميرسرحان**

**هـــذه** الليلة أيضاً كان « باولو » إذن يتهيأ للخروج ، كانت الأم تسمعه من الغرفة الملاصقة لغرفته وهو يتحرك فى حذر . لعله كان ينتظر ـ لكى يخرج ـ أن تطفىء النور وتأوى إلى فراشها .
وأطفأت النور ، ولكنها لم تأوِ إلى الفراش ، بل جلست قرب الباب وهى تعصر إحدى يَدَيْهَا بالأخرى ، يَدَيِ الخادمة الخشنتين اللتين لم تَجِفَّا بعد من غسيل الأوانى ، ووضعت إحدى إبهاميها على الأخرى التماساً للقوة ، غير أن قلقها كان يزداد من لحظة لأخرى، ويغلب إصرارها على أن يستكنَّ ابنها ، وأن يعمد إلى القراءة ، أو يذهب لينام كما كان يفعل من قبل . .
والذى حدث بالفعل هو أن خطوات القسيس الشاب توقفت عِدَّة دقائق . ولم يكن يسمع فى الخارج سوى صوتِ الريح مصحوباً بحفيف أشجار الجسر الواقع خلف الأَبْـرَشِيَّـة [1] الصغيرة ، ريح ليست قوية ولكنها لا تتوقف ، رتيبة ، كأنها تلف الدار بشريط عريض من الصوت العالى ، وتظل تشدهاوتشدها كأنها تحاول أن تقتلعها من أساسها وتجرها إلى أسفل .

كانت الأم قد أوصدت باب الشارع بقضيبين وضعتهما فى شكل صليب لتمنع الشيطان ـ الذى يحوم فى الليالى العاصفة بحثاً عن أرواح ـ من دخول الدار . هى لم تكن فى الواقع تعتقد كثيراً فى هذه الأشياء ، وهى الآن تشعر

---

(١) الأَبْرَشِيَّة : منطقة من البلاد تخضع لسلطة أسقف .

فى أسًى وبسخرية غامضة من نفسها أن الشيطان موجود فعلاً داخل الأَبْـرَشِيَّـة ، وأنه يشرب من إبريق ولدها « باولو » ويدور حول مرآته المعلقة بجوار النافذة .

هاهو ذا « باولو » يتحرك من جديد . لعله واقف أمام المرآة ، برغم أن هذا محظور على القسس ، ولكن ما أكثر الأشياء التى يسمح « باولو » بها لنفسه منذ فترة . . إن الأم تذكر أنها كثيرًا ما فاجأته فى الآونة الأخيرة وهو يُطيل النظر لنفسه فى المرآة كالنساء ، كذلك هو ينظف أظافره ويلمعها ، ويمر بالفرشاة على شعره الذى أصبح يرفعه إلى أعلى بعد أن تركه يطول ، وكأنه كان يريد أن يخفى علامة الحلاقة المقدسة . ثم إنه أصبح يستخدم العطور ، وأصبح ينظف أسنانه بمسحوق معطر ، ويمر بالمشط حتى على حاجبيه .

يخيل إليها الآن أنها تراه ، وكأن الجدار الذى يفصل بينهما قد انشق أَسْوَدَ على خَلفيةِ غرفته البيضاء ، سَامِقَ العُودِ ، بل مُفرِطَ الطول ، مخلعاً ، وهو يروح ويجىء بخطواته الشاردة ، خطوات الغلام ، إنه كثيرًا ما يتعثر وينزلق ، ولكنه يظل دائمًا محتفظاً بتوازنه . رأسه كبير نوعاً على عنقه الرقيق ، ووجهه شاحب ، ينوء تحت جبهته البارزة ، التى تبدو وكأنها ترغم الحاجبين على التقطيب مِنْ وَقْرِ حملها ، وترغم العينين على البقاء نصف مفتوحتين . وفكاه القويان ، وفمه الكبير الممتلىء ، وذقنه العنيد ، تبدو وكأنها هى الأخرى تفوق باستعلاء بضغط الجبهة ، دون أن تقدر على زحزحتها .

هاهو ذا « باولو » يتوقف أمام المرآة . وجهه كله يشع نوراً ، وقد ارتفع جفناه عن شفافية عينيه العسليتين اللتين تلمعان كأنهما قطعتان من الماس ، وشعرت الأم بغبطة فى قلبها وهى تراه هكذا وسيماً قَوِيًّا ، ولكن خطواته

المتسحبة أعادتها إلى أساها . إنه ينوى الخروج ، مافى ذلك شك، لقد فتح باب غرفته ثم توقف ، لعله يتسمَّع بدوره الأصواتَ من حوله ، ليس هناك إلا الريح التى لا تكف عن مصارعة الدار ، وحاولت الأم أن تقوم وأن تصيح : «باولو » ، ياولدى ، ياخليقة الإله ،قف ، لا تخرج ،ولكن قوة أعلى من إرادتها أوقفتها . ارتعشت ركبتاها وكأنهما كانتا تحاولان التمرد على هذه القوة الجهنمية . . ارتعشت الركبتان ، أما القدمان فقد رفَضَتَا التحرك، وكأنَّ يدين قويتين سَمَّرَتَاهُمَا إلى أرضية الغرفة . وهكذا استطاع ابنها « باولو» أن يترك السلم بدون أن يُحدِث صوتاً ، وأن يفتح الباب ويخرج . وبدا كأن الريح حملته فجأة بعيدًا عن الدار.

عندها فقط نجحت فى القيام ، وأوقدت المصباح من جديد ، ولكن بصعوبة ، فقد كانت أعواد الثقاب تترك خطوطًا طويلة من الضوء البنفسجى على الحائط الذى كانت تحكها عليه ثم تنطفىء . وأخيرًا نشر المصباح الصغير غلالة من الضوء فى الغرفة العارية الفقيرة ، غرفة الخادمة ، وفتحت الباب ، وتقدمت تَتَنَصَّتُ . كانت فرائصها ترتعد ، ولكنها كانت تتحرك مع ذلك بكيانها كله ، صلبة ، مُخْشَوْشِنَةَ ورأسها الكبير على جسمها القصير القوى الذى كان يبدو بثيابه السوداء الباهتة وكأنه نُحِتَ بالفأس فى جذع شجرة من أشجار البلوط . وكانت ـ من مكانها المرتفع بالباب ـ ترى الدرج الإردِوَازِىّ الصغير شديد الانحدار بين الجدران البيضاء ، وترى فى المؤخرة باب الدخول الذى كانت الريح تهزه على مفصلاته . ورأت القضيبين اللذين رفعهما « باولو » مُسْنَدَيْنِ على الجدار . . وتملكها غضب شديد ، لا ، لابد من قهر الشيطان ! ووضعت المصباح على أعلى الدرج الصغير ونزلت ، وخرجت هى الأخرى .

ودهمتها الريح بعنف ، ونفخت منديل رأسها وملابسها ، وبدت وكأنها تريد أن ترغمها على العودة . وأحكمت ربط المنديل تحت ذقنها ، وسارت إلى الأمام خافضة الرأس كأنها تنطح عقبة اعترضتها . وعلى هذه الصورة سارت أمام واجهة الأبرشية ، وأمام جدار بستان الفاكهة ، وواجِهة الكنيسة، وحين وصلت إلى ركن الكنيسة توقفت . لقد دلف « باولو » من هنا وعبر المرج ، وقد رفع ثنايا معطفه المرفرف وكأنه طائر أسود ضخم ، المرج الذى كان يمتد إلى بيتٍ قديم يكاد يستند إلى الجسر الذى يسد الأفق فوق القرية .

السناء الأزرق تارة ، والأصفر تارة أخرى ، والمنبعث عن القمر الذى تمر أمامه سُحُب كبيرة متحركة ، كان ينير المرجَ المُعْشِبَ والميدانَ الصغير الممتد على هيئة شرفة أمام الكنيسة والأبرشية ، وصفين من الدور الصغيرة ، متعرجين على جانبى شارع منحدر كان ينتهى إلى أدغال الوادى . وفى وسط هذا كان النهر يبدو كأنه شارع آخر رمادى اللون متعرج ، يختلط عند نهايته بأنهار وشوارع . . كانت السُّحُب التى تدفعها الريح تشكلها وتنقضها من حين لآخر فى الأفق فى مشهد عجيب عند مخرج الوادى . ما من بصيص من النور ولا خيط من الدخان كان يُرَى فى البلدة الصغيرة ، وكانت الدور الصغيرة الفقيرة التى تشبه صَفَّيْنِ من الخِرَاف فى أعلى المنحدر المُعْشِب تبدو كأنها نائمة فى ظل الكنيسة الصغيرة بناقوسها الذى كان محتمياً بدوره تحت الجسر كراعٍ على عصاه المعقوفة . وكانت أشجار الحور الرومى المزروعة فى صف أمام حاجز الكنيسة الحجرى تصارع الريح فى غضب ، وعلى حفيفها كان يرد أنين أشجار الصفصاف والخيزران الصاعد من الوادى . وبكل هذا الألم اللَّيْلِى ، وبعصف الريح ، وغرق القمر بين السُّحب ، كان يختلط كَرْبُ الأمّ الوَلْهَى التى كانت تقفو أثر ابنها .

كانت الأم حتى هذه اللحظة تخادع نفسها آملة أن ترى ابنها ينزل إلى البلدة ليعود مريضاً ، وإذا به على العكس ، يعود وكأن الشيطان يحمله إلى البيت القديم الواقع أسفل الجسر . وفى البيت القديم أسفل الجسر لم يكن هناك سوى امرأة موفورة الصحة ، امرأة شابة تعيش وحدها ... وها هو ذا «باولو » ، بدلا من أن يتجه إلى باب البيت كزائر عادى ، يتجه إلى باب بستان الفاكهةالصغير ، وهاهو ذا الباب الصغير يفتح ويغلق خلفه كفم أسود يبتلع الداخل ، حينئذ اندفعت هى الأخرى عبر المَرْج وقدماها تكادان تتبعان أثر قَدَمَيِ ابنها على العشب حتى الباب الصغير . ووضعت راحَتَيْهَا على الباب ودفعته بكل قوتها ، ولكن الباب لم ينفتح ، بالعكس ، بدا وكأنه أُوتى قوة مَكنته من حدها ، وهمت بأن تدق الباب بعنف وتصيح ، ونظرت إلى أعلى ، وتحسست الجدار ، كأنها لتختبر مقاومته ، ولكن اليأس استحوذ عليها ، وأصاخت السمع ، ولكنها لم تسمع سوى حفيف الأشجار فى بستان الفاكهة ، وبدت هذه الأشجار وكأنها هى الأخرى صديقة وشريكة لصاحبتها ، وكأنها حريصة على تغطية كل صوت آخر حولها .

بيد أن الأم كانت تريد أن تهزم تلك المرأة ، كانت تريد أن تسمع وأن تعرف أو ـ على الأصح ـ لأنها كانت فى قرارة نفسها تدرك الحقيقة . . كانت لا تزال تُمَنِّى نفسها بأن تكون واهمة . وبدون أن تحاول التستر هذه المرة سارت بحذاء حائط البستان ، ثم بحذاء واجهة الدار وأبعد ، حتى باب المدخل الرئيسى ، وتحسست حجارة البناء وكأنها تبحث بينها عن حَجَرٍ يستجيب لدفعتها ، ويترك لها ثغرة تنفذ منها ، ولكن كل شىء كان متيناً وصلدًا ومغلقاً ، وبدا الباب الكبير والباب الصغير والشبابيك ذات القضبان الحديدية وكأنها فتحات حصن مسدودة ، أمَّا القمر ـ الذى كان

فى هذه اللحظة ساطعاً فى بحيرة زرقاء فكان ينير الواجهة المحمرة التى كان يسقط عليها ظل السقف المائل الذى علاه العشب . وكان زجاج النوافذ ـ التى لم تكن لها ضلف خشبية ، ولكن كان لها مصاريع مغلقة من الداخل ـ يلمع كالمرايا المخضرة ، ويعكس صورة السحب والمساحات الزرقاء وأشجار الجسر المهتزة .

ورجعت أدراجها ، ومست رأسها حلقات الحديد المثبتة فى الجدار لكى تُرْبَط إليها الجياد . وتوقفت من جديد أمام الباب ، وفجأة ـ أمام هذا الباب العالى الذى تؤدى إليه ثلاث درجات من الجرانيت ، والذى يحميه قوس مُحَاطٌ بالحديد ـ غلبها شعور بالهوان والعجز ، وبأنها أصغر مما كانت حين كانت وهى طفلة صغيرة تتلكأ مع أترابها من أطفال البلدة الفقراء أمام هذا البيت بأمل أن يخرج صاحبه ويلقى إليهم ببعض قطع النقود . وكان يحدث أحياناً ـ فى ذلك الزمن البعيد ـ أن يفتح الباب فجأة فيكشف عن مدخل مظلم ، أرضه مرصوفة بالحجارة ، فيه أرائك هى الأخرى من الحجارة ، وكان الأطفال يتدافعون حتى عتبة الباب وهم يتصايحون ، وكانت أصواتهم تتردد داخل البيت كما تتردد الأصوات فى مغارة ، وكانت إحدى الخادمات تظهر على الباب تطردهم، وكانت تقول لها : « أنتِ أيضاً ياماريا المجدلية؟ ألا تخجلين وأنت فى سنك هذه من السير وراء هؤلاء الأطفال الصغار ؟ » عندها كانت تبتعد وهى تتعثر فى حيائها ، ولكن ذلك لم يكن يمنعها من الالتفات توًّا ، والتطلع بفضول إلى داخل البيت ذى الأسرار .

هاهى ذى الآن بنفس الصورة تبتعد وهى تعصر يديها فى قنوط ، وتستدير لتنظر إلى الباب الصغير الذى ابتلع ابنها « باولو » كالمصيدة ، ولكنها ندمت وهى قافلة فى طريقها إلى الدار لأنها لم تصح ، ولم تقذف

الباب بالحجارة لكى ينفتح لها ، فتحاول أن تسترد ابنها . . ندمت على ذلك وتوقفت ، ثم عادت واستأنفت السير ، ثم تراجعت من جديد تحت ووطأة الشك والجزع ، إلى أن جعلتها غريزة استجماع قواها ولَمّ شتات نفسها بصورة أفضل لمواجهة المعركة الحاسمة تَئُوب إلى بيتها كما يئوب الوحش الجريح إلى عرينه . وما إنْ دخلت حتى أغلقت الباب وتهاوت على الدرج ، ومن العلو كان ضوء المصباح الزيتى يسقط عليها فى اهتزاز .

كان كل شىء داخل هذه الدار الصغيرة ـ التى كانت حتى هذا الوقت وطيدة الأركان ، هادئة كالعش وسط الصخور ـ يبدو متأرجحاً : الصخرة كانت تهتز من أساسها ، والعش كان يوشك على السقوط ، وكانت قوة الريح فى الخارج تزداد ، وكان الشيطان يعمل بدوره فى الكنيسة وفى الأبرشية وفى عالم المسيحيين كله . وهتفت الأم فى توجع : « رباه ! رباه ! » وبدا لها صوتها وكأنه صوت امرأة أخرى ، ونظرت إلى ظلها على جدار السلم وأومأت إليه برأسها ، أجل ، خُيل إليها أنها ليست وحدها ، وبدأت تفكر بصوت عالٍ كما لو كان هناك حقيقة شخص آخر يسمعها ويرد عليها :

أَمَا مِنْ سبيل إلى إنقاذه ؟

انتظريه هنا إلى أن يعود وحَدِّثِيهِ حديثاً واضحاً وحازماً . . الآن ، يا ماريا المجدلية ، ومازال فى الوقت بقية ، لكنه سيغضب ، سيفكر .

أفضل من ذلك أن أذهب إلى الأسقف وأن أرجوه أن ينقلنا من هذا المكان ، مكان الهلاك الأبدى . الأسقف خادم للرب ، وهو يعرف طبيعة البشر ، سأركع عند قدميه . يبدو لى أننى أراه فى ردائه الأبيض ، فى صالونه الأحمر ، وضوء الصليب الذهبى يبرق على صدره ، وأصبعاه مرفوعتان ليبارك مَنْ حوله . إنه يبدو كالمسيح ذاته . سأقول له : قَدَاسَتُكَ تعرف أن

أبريشية «آر » ، فضلا عن كونها أفقر أبرشيات الملكوت ، حَلَّت بها لعنة . لأكثر من مائة عام لم يكن فيها قس ، حتى نسى أهلها الرب . ثم أرسل إليها قسيس منذ مدة ، ولكنك يا صاحب القداسة ، تعلم أى رجل كان هذا القسيس ، كان طيباً وَرِعاً حتى سن الخمسين ، وقد أعاد بناء الكنيسة والأبرشية ، وبنى قنطرة على النهر على نفقته الخاصة ، وكان يذهب للصيد، ويعيش بين الرعاة والصيادين ، ولكن حاله تبدل فجأة وركبه الشر كالشيطان . أخذ يمارس السحر وبدأ يعاقر الخمر ، وتسلط على النفوس ، وأصبح ميالاً للعنف . كان يدخن الغليون ، ويسب ويلعن ، ويفترش الأرض ، ويلعب الورق مع أسوأ أوغاد البلد ، وكان هؤلاء لذلك يحبونه ويحمونه ، أما سائر الناس فكانوا يحترمونه لهذا السبب بالذات .

على أن الذى حدث هو أنه فى السنوات الأخيرة أقفل على نفسه الأبرشية واعتزل الناس ، ولم يكن معه حتى خادمة . . لم يكن يخرج إلاَّ للاحتفال بالقداس ، ولكنه كان يحتفل به قبل الفجر ، ولم يكن أحد يحضر قداسه . ويقال إنه كان يحتفل به وهو سكران ، ولم يكن أفراد الأبرشية يجرءون على اتهامه ، من باب الخوف أولا ، ثم لأنه كان فيما يقال يتمتع بحماية الشيطان نفسه . وحين مرض لم ترد أى امرأة أن تذهب لتعتنى بأمره ، لم يكن بين الأخيار امرأة أو حتى رجل يقبل الذهاب للأخذ بيده فى أيامه الإخيرة . ومع ذلك كانت جميع نوافذ الأبرشية مضاءة فى الليل ، وقد راجت إشاعة تقول إن الشيطان كان يحفر فى تلك الليالى تحت الأرض نفقاً يمتد من هنا إلى النهر؛ لكى يحمل جثمان القس الميت إلى مكان بعيد ، وإن روح القس كانت تعود مستخدمة هذا النفق فى السنوات التى تلت موته ، وكانت تأمر وتنهى فى الأبرشية التى لم يقبل أى قسيس آخر أن يأتى ليخدمها .

وكان قس من بلد آخر يأتى إلى البلدة كل يوم أحد للاحتفال بالقداس ، ولدفن الموتى . على أن روح القس الميت جعلت القنطرة تنهار ذات ليلة ، وبقيت الأبرشية عشر سنوات بدون قسيس إلى أن جاءها ولدى « باولو » وجئت أنا معه ، وقد وجد البلد وأهله وقد توحشوا وانعدم إيمانهم ، ولكن الأحوال ازدهرت بعد مجيء ابنى « باولو » كما تزدهر الأرض حين يعود الربيع . غير أن من يؤمنون بالخرافات كانوا يقولون : إن اللعنة ستحل بالقسيس الجديد؛ لأن روح القسيس الآخر ما تزال تسيطر على الأبرشية . وكان البعض يقولون : إن هذا القس لم يمت حقًّا وإنه حى يُرزق ، وإنه يقيم هنا فى مسكن تحت الأرض متصل بالنهر . أنا فى الحقيقة لم أصدق قط مثل هذه الترهات ، كما لم يحدث لى قط أن سمعتُ أصواتاً ، نحن هنا منذ سبع سنوات ، أنا وابنى « باولو » ، وكأننا فى دير صغير ، وحتى وقت قريب كان « باولو » يعيش كطفل برىء ، كان يدرس ويصلى ويقضى وقته فى خدمة أهل الأبرشية ، وكان يعزف أحياناً على « الفلوت» . هو ليس مرحًا بطبعه ، كما أنه يحب الهدوء .

سبع سنوات من السلام والرخاء أظلتنا ، كالسنوات التى يتحدث عنها الكتاب المقدس ، ولم يكن ولدى « باولو » يشرب الخمر ، ولم يكن يذهب إلى الصيد ، ولم يكن يدخن ، وكان يغض العين عن النساء ، وكل مال استطاع أن يدخره كان ينفقه لإعادة بناء القنطرة تحت القرية . . ابنى «باولو» الآن فى الثامنة والعشرين من عمره ، وقد حلت به لعنة امرأة أوقعته فى شباكها . . ياقداسة الأسقف ، انقُلنا من هنا ، أنقذ ابنى « باولو » وإلاَّ فَقَدْ يَفْقِدُ روحه كما حدث للقس السابق . . ثم إن المرأة هى الأخرى بحاجة إلى من ينقذها ، إنها ، والحق يقال ، امرأة وحيدة . وهى بدورها معرضة للفتنة

فى بيتها الموحش فى هذا البلد المقفر الذى ليس فيه شخص جدير بصحبتها. أنت ياقداسةالأسقف تعرف هذه المرأة ، لقد استضافتك ومن كانوا فى معيتك حين جئتم فى زيارة للرعية هنا . . أشياء كثيرة وساحة كبيرة يجدها المرء فى بيتها . إنها امرأة ميسورة الحال ، مستغنية ، وحيدة ، وحيدة للغاية ! صحيح أن لها إخوةً وأُختاً ، ولكنهم جميعاً بعيدون ، هم متزوجون يعيشون فى بلاد أخرى . وقد بقيت هى وحيدة تعنى بالبيت والأملاك ، وهى لا تخرج إلاَّ لماماً ، حتى ولدى « باولو » لم يتعرف إليها إلا مؤخراً .

أبو المرأة كان رجلا غريب الأطوار ، نصفه سيد ونصفه شرير ، كان صيادًا . يكفى أن أقول : إنه كان صديقاً للقس السابق . لم يكن يذهب قط إلى الكنيسة ، ولكنه أرسل خلال مرضه الأخير فى استدعاء ابنى «باولو» ، وساعده ابنى « باولو » حتى فاضت روحه ، ثم أعد له بعد وفاته جنازة لم ير أحد مثلها فى هذا المكان ، أهل القرية ساروا فيها على بكرة أبيهم . حتى الأطفال الرُّضَّع كانت أمهاتهم يحملنهم على أذرعهن . ثم استمر ابنى «باولو» فى زيارة ربة البيت الباقية ، هذه المرأة اليتيمة تعيش وحدها مع خادمات نكدات . مَنْ ذا الذى يرشدها ؟ ومن ذا الذى يُسْدِى إليها النصح ؟ ومن يقدم لها يد المساعدة إن لم نقدمها نحن ؟

ولكن الأخرى سألتها :

ـ أنتِ واثقة ياماريا المجدلية ؟ أنت واثقة حقًّا مِنْ هذا الذى تفكرين فيه؟

أفى استطاعتك حقًّا أن تتقدمى للأسقف وأنْ تُحَدِّثيه بالحُجَّة والدليل عن ابنك وعن هذه المرأة ؟ ماذا إذًا لم يكن هناك شىء صحيح ؟

ـ ياإلهى ! ياإلهى !

وأخفت وجهها بين يديها ، وفجأة رأت ابنها « باولو » والمرأة فى غرفة بالدور الأرضى من البيت القديم : غرفة واسعة تطل على بستان الفاكهة ، سقفها على شكل قبة ، وأرضها من الأسمنت المخلوط بحصى بحرى صغير، وفيها مدفأة كبيرة محفورة فى أحد الجدران ، وكرسيان على الجانبين ، وفى الأمام أريكة من طراز قديم . الجدران البيضاء طُليت بالجير وعُلقت عليها أسلحة ورءوس وعول وحَشِيَّة ذات قرون ، ولوحات تهرَّأ قماشها الأسود ، ولم يعد يظهر منها هنا وهناك فى الظل السائد سوى أيْدٍ لونها كلون الطين ، وأجزاء من وَجْهٍ ، وضفيرة نسائية ، وبعض الفواكه . كان « باولو » والمرأة يجلسان بأيد متشابكة أمام المدفأة .

وهتفت الأم من جديد وهى تتأوه :

ـ رباه !

ولكى تهرب من هذا المنظر الشيطانى صرفت ذهنها إلى منظر آخر . منظر الغرفة ذاتها وقد أضاءها نور مائل إلى الخضرة كان ينفذ إليها من الشباك ذى القضبان المفتوح على المرج ، ومن الباب الذى كانت تلمع من فرجته أوراق الشجر الجافة إلى الأرضية وحركة سلاسِلَ المصباح النحاسى القديم الموضوع على المدفأة . . ومن الباب الموارب كانت العين ترى غرفاً مظلة إلى حدٍّ ما مغلقة النوافذ .

كانت هى هناك تنتظر ، وبين يديها هدية من الفاكهة أرسلها بها ابنها «باولو » إلى صاحبة البيت . جاءت هذه بسرعة وبدا عليها شىء من الارتياب . . جاءت من الغُرَف المظلمة وعليها رداء أسود . . كان وجهها

الشاحب حبيسًا بين « كعكتين » من غرائر شعرها الفاحم ، وكانت يداها البيضاوان الناحلتان اللتان تَفَتَّقَ عنهما ظلام الغرفة أشبه بأيدى النساء فى اللوحات المحيطة بها . حين ظهرت كلها فى ضوء الغرفة كان فى شخصها الدقيق شيء نَاءٍ متشكك . عيناها الكبيرتان الداكنتان تركزتا فجأة على سلة الفاكهة الموضوعة على المائدة ، ثم تحولتا بنظرة عميقة إلى المرأة الواقفةالتى كانت تنتظر ، وأضاءت ابتسامة سريعة فيها فرحة ، ولكن فيها أيضاً سخرية ثغرها الحزين الشهوانى ، وَوَلَّدَ أول شكوك الأم ، لسبب ما زالت تجهله ، حتى هذه اللحظة هى لا تزال تجهل السبب ، ولكنها تذكر الحفاوة التى استقبلتها بها الفتاة ، فقد أجلستها إلى جوارها وسألتها عن أخبار «باولو» كانت تدعوه هكذا باسمه المجرد كما لو كان أخاها ، ولكنها لم تكن تتوقع أن تكون هى كما كانت تأمل ، بل ـ تقريبًا ـ ظنتها غريمة يتعين التقرب إليها والحذر منها .

وأمرت المرأة بالقهوة ، فجاءت بها خادمة حافية القدمين ، مُقَنَّعَةٌ كأنها عربية ، أتت بها فى صينية كبيرة من الفضة . وتحدثت هى عن أخويها البعيدين ذوى النفوذ ، وقد راق لها بدون أن يبدو عليها ذلك أن تظهر بينهما وكأنهما العمودان اللذان يقوم عليهما بناء حياتها الموجودة . وأخيرًا صحبتها لتريها بستان الفواكه من باب الغرفة : تين بنفسجى اللون يغطيه تراب فضى ، وكمثرى ، وعناقيد من العنب الذهبى كانت تظهر من خلال خضرة الأشجار والكرمة اللامعة . ما الذى يجعل « باولو » يرسل هدية من الفواكة لامرأة فى بستانها منها كل هذا القدر ؟

كانت الأم حتى هذه اللحظة ـ وفى عتمة الليل المرتعشة ـ لا تزال ترى تلك النظرة الساخرة الرقيقة التى ودعتها بها الفتاة ، وكيف أسبلت جفنيها

الثقيلين وكأنها لم تكن تعرف وسيلة أخرى لإخفاء المشاعر التى كانت تشف عنها هاتان العينان ، وطريقة الاندفاع التلقائى للكشف عما يعتلج فى النفس، ثم محاولة إخفاء هذه المشاعر على الفور . إنها تشبه بصورة غير عادية عينى ابنها «باولو» وطريقته ، لدرجة أنها حين أخذت الشكوك التى أثارها سلوكه تتزايد فى قلبها وتقض مضجعها فى الأيام التالية لم تكن تشعر بكراهية إزاء هذه المرأة التى أغوته ، بل كانت تبحث عن وسيلة لإنقاذها هى أيضًا ، وكأن الأمر يتعلق بابنة لها .

ومر الخريف والشتاء بدون أن يحدث شىء يزيد هواجسها ، ولكن ها هو ذا الشيطان يستأنف نشاطه مع عودة الربيع وهبوب رياح شهر مارس . وها هو ذا « باولو » يخرج ويذهب إلى البيت القديم .

ـ ما السبيل لإنقاذهما إذن ؟

سألت هذا السؤال ، وأجابتها الريح من الخارج وكأنها تهزأ بها ومن غَلْق الباب . وتذكرت أن ريحًا عاتية هبت عليهما أثناء رحلتهما حين قَدِمَا إلى هذه البلدة . كان «باولو» قد عُيِّنَ قسيساً فيها ، بعد أن عملت هى كخادمة عشرين سنة ، وقاومت كل مغريات الحياة ، وحَرَّمَتْ على نفسها الحُبَّ والخبز لتنشىء ابنها تنشئة صالحة ، وتعطيه قدوة طيبة . وقتها أيضاً كان الفصل فصل الربيع ، ولكن الوادى بدا وكأنه قد استعار مخاوف الشتاء ، أوراق الشجر كانت ملتوية ، والأشجار كانت تتثنى وكأنها تنظر هنا هناك فى رهبة ، تصاعد السحب السوداء اللامعة السريع من كل نواحى الأفق واصطدام بعضها ببعض كأنها جيوش فى موقعة حربية ، وكانت حَبَّات وقطرات كبيرة من البَرَدِ تتساقط كالرصاص من السماء وتخترق أوراق الشجر الناعمة .

وعند منعطف الطريق الذى يشرف منه على الوادى ويبدأ فى الانحدار حتى النهر باغتت الريح المسافرين بقوة بلغ من شدتها أن توقف الجوادان وهما يصهلان ، ورفعا آذانيهما من الخوف ، ذلك أن لريح كانت تهز أَعِنَّتَهُمَا كقاطع طريق يوقفهما بالشَّدِّ على عُنُقَيْهما ليصد ويهاجم المسافرين . حتى «باولو » الذى كان يتظاهر بعدم الاكتراث صاح بنبرة مَنِ انتابه وَهْمَ خُرافى غامض : « إنها روح القس القديم الشيطانية تريد منا أن نعود من حيث أتينا » . ونزعت الريح الكلمات من فمه وأطاحت بها بعيدًا . وحاول أن يبتسم بتهمكم ابتسامة غير كاملة لم تكشف إلاَّ عن أسنان الجانب الأيسر من فمه ، ولكن الكآبة كست وجهه وهو يُصوب النظر إلى البلدة الصغيرة التى بدت وكأنها منظر فى لوحة تستند إلى السفح الأخضر فوق سطح النهر المضطرب فى ظل الجسر المثقل بالسحاب .

وهدأت الريح قليلا بعد أن عبرا النهر . كان سكان البلدة الصغيرة الذين خرجوا لاستقبال القس الجديد ـ وكأنه المسيح ـ قد اجتمعوا فى ميدان الكنيسة ، حتى أصغرهم سِنًّا ، كانوا ينزلون حتى ضفة النهر للقاء المسافرين . لقد نزلوا من الجبل وكأنهم سرب من النسور الصغيرة . واهتز الجو من صياحهم . وحين وصلوا إلى القس أحاطوا به ، وقادوه فى انتصار ، وكانوا يطلقون من آنٍ لآخرَ أعيرة نارية من بنادقهم علامة الفرح ، وكان الوادى كله يردد صدى صيحاتهم وطلقات بنادقهم . وهدأت الريح ، وانتهت العاصفة .

كان قلب الأم ـ حتى فى لحظة الخوف واللهفة ـ يختلج زهوًا وهى تسترجع مشاعر تلك الساعة ، ساعة الصفر ، كان يبدو لها أنها لا تزال تعيش فى حلم ، وأن هؤلاء الشبان الثرثارين كانوا يحملونها على ما يشبه السحابة

المتقدة ، وإلى جوارها ابنها « باولو » الذى كان لايزال غلاماً يافعًا ، وقد بدت عليه سيماء القديسين ، وكل هؤلاء الرجال الأشرار يحنون هاماتهم من حوله .

هيا إلى فوق ، إلى فوق . كانت نيران الفرح التى أوقدها المستقبلون تلتمع فى أنحاء الجسر العارية العليا . وكانت ألسنة اللهب تطفو على خلفية السحب السوداء وكأنها أعلام أرجوانية . وكانت البلدة الرمادية ، والمرتفعات المعشبة ، وأشجار التمر هندى ، وأشجار الماء على طول الطريق الزراعى تسبح فى النور . إلى أعلى ، وفوق حاجز الميدان الحجرى ظهر حائط جديد من الأجسام البشرية ومن رءوس الرجال فى معاطفهم المدببة فى مكان الرأس ، ورءوس النساء فى مناديلهن ذات الأهداب المرفرفة ، وكانت أعين الأطفال تبرق وقد استخفهم المنظر ، وعلى حافة الجسر كانت تبدو أشباح الصبية الذين يغذون النيران كشياطين صغيرة . ومن خلال باب الكنيسة الموارب كانت شعلات الشموع تبدو للناظر كزهور نرجس تداعبها الريح . وكانت أجراس الكنيسة تدق عالية الرنين . حتى السحب فى سماء من الفضة الباهتة تراكمت حول الجرس ، وبدا كأنها توقفت لترى وتنتظر ، وارتفعت صيحة من الجمع الصغير :

هذا هو ! كأنه قديس !

ولكنه لم يكن يملك من صفات القديسين سوى سَمْتِهم المطمئن . لم يكن يتحدث كما لم يكن يرد التحية ، ولم يكن يبدو عليه حتى الانفعال لهذه المظاهرة الشعبية ،بل كان يزم شفتيه ، ويرخى جفنيه ، ويعقد حاجبيه ، وكأن جبهته كانت تثقل عليه . . وفجأة رأته الأم ـ حين كانا يسيران وسط الجمع ـ وهو يميل إلى جنب وكأنه يوشك على السقوط ، وأسنده رجل ، ثم

انتصب فجأة وجرى إلى داخل الكنيسة الصغيرة وركع أمام المذبح ، وأخذ يرتل صلوات المسيح ، وكانت النسوة يُجِبْنَ ترتيله بأصوات باكيية متهدجة

هذا البكاء ـ بكاء النسوة الفقيرات ـ كان تعبيرًا صادقًا عَمَّا كان يعمر قلوبهن من محبة وأمل ، وتطلع إلى متاع غير أرضى ، وكانت الأم ، فى ساعة كربها هذه ، تشعر به وهو يصعد من حنايا صُدورهن .

ابنها « باولو » حبه وأمله وتطلعه إلى متاع غير أرضى ، هذا هو ما تريد روح الشر أن تنزعه منه ، وهذه أمه جالسة أسفل السلم ، وكأنها فى قاع بئر، عاجزة عن إنقاذه ، وبدا لها أنها تختنق ، وتضخم قلبها ، وشعرت أنه جامد كالحجر ، وأنه يؤلمها .

وقامت لتتنفس بصورة طبيعية وصعدت إلى غرفتها ، وأخذت المصباح الزيتى ورفعته إلى أعلى ، وأجالت بصرها فى غرفتها العارية التى يرافقها فيها فراشها الخشبى الوحيد ـ صوان نخرته دودة الخشب ـ كصديقين قديمين . غرفتها كانت غرفة الخادمة ، وهى لم تحاول قط تغيير مصيرها ، بل قنعت بثروة واحدة ، هى كَوْنُها أُمًّا لابنها « باولو » . وذهبت إلى غرفة : غرفة بيضاء بسريرها السفرى الصغير . كانت هذه الغرفة فى وقت من الأوقات مرتبة وبسيطة كغرفة فتاة فى مقتبل العمر ، وكان ابنها يحب الهدوء ، والصمت، والنظام ، وكان يضع دائماً زهورًا على المنضدة التى كان يدرس عليها أمام النافذة ، ولكنه لم يعد منذ فترة يهتم بشىء ، فهو يترك أدراج الصوان مفتوحة، ويترك الكتب على المقاعد ، بل وعلى الأرض . وكانت تتصاعد من الماء الذى اغتسل به قبل أن يخرج رائحة عطر الورد ، وكانت إحدى ستراته ملقاة بالطول على الأرض كأنها ظل إنسان وقد سقط ! وهزتها هذه الرائحة وهذا الظل من جديد ، فأفاقت من شعورها بالإحباط ، ورفعت

الستِرة بسخط وشدتها كما لو كانت أُوتِيَتْ قوة تُمكنها من رفعه هو كذلك . ورتبت الغرفة شيئاً ما ، وهى تسير بخُطًا قوية ، ولم تحاول ـ كما كانت تفعل فى الماضى ـ أن تخفف وقع حذائها القروى ، وقربت من المنضدة الكرسى الجلدى الذى كان ابنها يجلس عليه للدراسة ، ودقت بقدميها على الأرضية وكأنها تَأْمُرهُ بأن يجىء ويتعهد لها فورًا بالعودة إلى مكانه . ثم نظرت صوب المرآة الصغيرة المعلقة بجوار النافذة .

إنَّ مِنَ المحرم على رجل الدين أن يحتفظ فى بيته بمرآة ، فالمفروض أنه يعيش بدون أن يتذكر أن له حَدًّا . فى هذا على الأقل كان القس السابق يحترم قانون الكنيسة ، وكان الناس يرونه من الشارع وهو يسرح لحيته ، وينظر إلى نفسه فى زجاج النافذة المفتوحة التى كان يضع خلفها قُماشَةً سوداء .

أما « باولو » فقد كانت المرآة تجتذبه ، كما كان النبع الذى فيه وجه مبتسم يجتذب من ينظر إليه ويجعله يسقط فيه . وانتزعت الأم المرآة الصغيرة ـ التى كانت تعكس وجهها المتجهم وعينيها المتوعدتين ـ من المسمار الذى عُلِّقَتْ عليه .

وشيئاً فشيئاً استبدَّ بها الغـضب ، ففتحت النافذة بعنف لكى تندفع الريح إلى داخل الغرفة وتطهر جسدها . وبدا كأن الحياة دبت فى الكتب والأوراق الموضوعة على المنضدة ، فطارت هنا وهناك وتبعثرت فى أركان الغرفة ، واختلجت حواف غطاء السرير ، ومالت من الخوف ذُبالة المصباح . جمعت الأم الأوراق المشتتة ووضعتها على المنضدة ، ولفت نظرها الكتاب المقدس الذى كان مفتوحًا على رسم ملون كان يعجبها كثيرًا ، فَانْحَنَتْ لتراه عن قرب ، أَجَلْ ، إنه المسيح الراعى مع خرافه التى

كانت ترتوى من عين فى وسط الغابة ، وبين جُذوع الشجر ، على خلفية الأفق الزرقاء ، وكانت تبدو مدينة يضيئها الشفق بلون أحمر . . إنها المدينة المقدسة ، مدينة الخلاص .

أجل ، كان ابنها فى الماضى يسهر الليل فى الدراسة أمام النافذة المطلة على الجسر الذى تزينه النجوم ، وكان طائر الليل يَصْدَح له بالغناء .

كان ابنها فى السنة الأولى من إقامته فى هذه البلدة يتحدث عن رغبته فى تركها والعودة إلى الدنيا ، ثم أصابه ما يشبه النوم فى ظل الجسر وسط حفيف الأشجار ، ومرت سبعة أعوام على هذا المنوال ، ولم تكن الأم تشجعه على الانتقال إلى بلد آخر ؛ لأنهما كانا سعيدين للغاية فى هذه البلدة التى كانت تبدو لها أجمل بلدة فى العالم ؛ لأن ابنها « باولو » كان يقوم فيها بدور المسيح والمَلَك .

وأغلقت النافذة وأعادت المرآة التى كانت تعكس وجهها الشاحب وعينيها اللتين علتهما غلالة من الدموع ، أعادتها إلى مكانها وسألت نفسها من جديد عَمّا إذا لم تكن واهمة . والتفتت قبل أن تبرح الغرفة ناحية الصليب المعلق على الجدار أمام كرسى الركوع ، ورفعت المصباح لكى تراه بوضوح . وفى الحركة التى صنعتها الظلال بدا لها أن المسيح الناحل ، المسيح العارى المحدد على الصليب ، كان يحنى رأسه ليستمع إلى ما كانت تريد أن تبثه إياه من شجنها .

فى هذه اللحظة انحدرت دموع حَرَّى من مُقلتيها على طول الوجه ، وسقطت على ثوبها ، وخُيل إليها أنها دموع من دم . وهتفت :

ـ رباه ! خلصنا جميعًا وخلصنى أنا أيضاً أنت يامن شحب لونُكَ ،

وغاضَ دمك ، بوجهك الحلو كالوردة الناعمة تحت إكليل الشوك . . أنت يامن تعلو فوق أهوائنا ، اكتب لنا الخلاص .

وهرولت خارجة ، ونزلت السلم ، وعبرت غُرَفَ الدور الأرضى ، وعلى ضوء المصباح المفاجىء صحت بعض الذبابات من نومها وأخذت تحوم بطنين مسموع حول زوايا الأثاث القديم . ومن غرفة الطعام التى كانت الريح وحفيف شجر الجسر يدخلان إليها من أعلى ناقذتها العالية ، مع صوت هطول المطر دلفت إلى المطبخ ، وجلست أمام المدفأة التى كان الرماد قد غَطًّى نارها .

هنا أيضاً كان كل شىء يرتعش بفعل الريح التى كانت تنفذ من خلال الشقوق . وبدا لها أنها موجودة ـ لا فى هذا المطبخ المستطيل المنخفض ذى السقف المائل ، الذى يرفعه عدد لا يحصى من عروق الخشب الغليظة والرفيعة التى اسودت من هباب المدخنة ، بل فى قارب تتقاذفه أمواج بحر هائج . وعلى الرغم من كونها قررت أن تنتظر عودة ابنها وبدء المعركة على الفور ، فقد حاولت من جديد أن توهم نفسها أنها كانت على خطأ . وبدا لها أنه من الإجحاف أن يبتليها الرب بهذا العذاب . ها هى ذى من جديد تستعيد مافى حياتها كلها ، مافيها من الشقاء والتَّعَسِ ، وتنقب فى أيامها عن بذرة الشر الذى حاق بها الآن . كل أيامها تجمعت ها هنا فى حجرها جافة نقية كحبات المسبحة التى كانت تعبث بها أصابعها المرتجفة .

إنها لم تأت إثماً مطلقًا ، اللهم إلاَّ بالفكر أحياناً . ورأت نفسها وهى طفلة يتيمة فى بيت أقارب فقراء فى هذه البلدة ذاتها مضطهدة من الجميع . . كانت تسير حافية القدمين ، وتحمل على رأسها أحمالا ثقيلة : ملابس لتغسلها فى النهر ، وغَلَّة لتذهب بها إلى الطاحونة . وكان لها قريب ناهز

الشيخوخة يخدم عند الطحان ، وكلما نزلت هى إلى الطاحونة كان هذا الرجل ينتهز فرصة ابتعاد الأعين ويلاحقها إلى أن تدخل أيكة أو أجمة من شجر « التمر هندى » فينقض عليها ويُقبلها ، ويؤلم وجهها بشعر لحيته المدبب ، ويغطيها كلها بالدقيق . وحين حَكَتْ فى البيت ما حَدَث لها كَفَّتْ خالاتها عن إرسالها إلى الطاحونة . وفى يوم من أيام الأحد جاء هذا الرجل ، الذى لم يكن يحضر إلى البلدة قط ، جاء إلى البيت وقال : إنه يريد أن يتزوج من الصبية . وضحك باقى الأقرباء ولكزوه ، ومَرُّوا بالمكنسة على كتفيه ليزيلوا عنهما الدقيق ، وتركهم هو يفعلون ما يحلو لهم ، وعيناه اللامعتان لا تفارقان الفتاة ، وقَبِلَتْ هى أن تتزوجه ، وظلت مقيمة فى بيت أقاربها ، ولكنها كنت تنزل كل يوم إلى الطاحونة ، وكان زوجها ـ الذى ظلت تسميه بالعم ، كما كانت تفعل فى الماضى ـ يعطيها كمية صغيرة من الدقيق فى خفية عن صاحب الطاحونة .

وفى يوم من الأيام ، ـ حين كانت عائدة وهى تحمل الدقيق فى إزارها ـ بدا لها أنَّ شيئاً يتحرك فى داخلها ، وتولاها الذعر، فتركت يداها طرفى الإزار فانسكب الدقيق كله عند قدميها ، وخَرَّتْ إلى الأرض ، وانتابها ما يشبه الدوار ، وبدا لها أن الأرض زلزلت ، وأن كل شىء حولها كان يتفلق ويتصدع ، وأن دور البلدة انهارت على أركانها ، فقد خرجت حجارتها على الطريق الزراعى الصغير ، وهى أيضاً تدحرجتْ على العُشب الذى ابيضَّ مِن الدقيق ، ثم نهضتْ وأخذتْ تجرى وهى تضحك ، وإن يكن بشىء من الفزع ، فقد أدركت أنها حامل .

وما هو إلاَّ قليل حتى مات زوجها وتَرَمَّلَتْ ، ولم يكن ابنها « باولو» قد بدأ يتحدث ، ولكنَّ عينيه اللامعتين كانتا تبدوان وكأنهما تريد ان الطيران . .

وبكت زوجها لا باعتباره زوجاً ، بل باعتباره قريباً طيباً . ولم تلبث أن تعزت عن فقده ، فقد عرضت عليها إحدى بنات عمها أن تذهب معها للعمل فى المدينة ، وقالت لها :

ـ إنْ فعلتِ استطعتِ إعالة ابنك ، وبعدها سيكون بإمكانك أن تحضريه هو الآخر إلى المدينة ، وأن تدخليه المدرسة .

وهكذا فعلت ، عاشت وعملت من أجله وحده ، لم تكن فرص ارتكاب الخطيئة ـ أو على الأقل فرص الحصول على شىء من الترفيه ـ معدومة ، ولم تكن تنقصها الرغبة فيها . رب البيت والخادم ، الفلاح ورجل الطبقة المتوسطة . . من منهم لم يلاحقها بصورة أو بأخرى كما فعل « العم » بين أشجار التمر هندى ؟ إن الرجل صياد والمرأة فريسته ، ومع ذلك فقد كانت تعتبر نفسها أُمَّ القسيس . لِمَ إذن هذا العقاب يارب ؟

وحنت رأسها من الضَّنَى ، واستمرت دموعها تتساقط على وجهها ، ومن وجهها على حجرها ، وتمتزج بحبات المسبحة ، واختلطت أفكارها ، وبدا لها كأنها لا تزال فى المطبخ الكبير المدهن البارد ، مطبخ معهد الكهنوت الذى عملت فيه خادمة مدى عشر سنوات ، والذى نجحت فى جعله يتقبل ابنها « باولو » كطالب . . أشخاص يتدثرون بالسواد ويسيرون فى صمت بحذاء الجدران المصفرة ، وفى الممر المُلاحِق كانت تنبعث ضحكات صغيرة مكتومة ، كان طلبة المعهد يتبادلون اللكمات فى الخفاء ، وكانت هى جالسة وقد هدها التعب بجوار النافذة المطلة على الحوش المظلم ، وقد وضعت القماشة التى تستخدمها فى التنظيف على ركبتيها ،لكن التعب جعلها عاجزة حتى عن تحريك أصبع من أصابعها .

كان يبدو الآن ، وهى جالسة على سلم دار القسيس فى « آر » أنها تنتظر

عودة « باولو » الذى خرج من المعهد خلسة بدون أن ينبئها بالمكان الذى ذهب إليه . كانت تقول فى نفسها : « لو أنهم اكتشفوا خروجه لفصلوه من المعهد » ، وتنتظر فى لهفة أن تتوقف الأحداث حولها؛ لكى تتمكن من إدخاله دون أن يراه أحد .

واستيقظت فجأة ونظرت حولها ورأت من جديد مطبخ الأبرشية الضيق المستطيل الذى كانت الريح تلطمه وكأنه قارب فى لُجَّة البحر . لكن انطباع الحلم القصير كان قويًّا إلى درجة جعلتها تتوهم أن قماشة التنظيف لا تزال على ركبتيها ، وأنها تسمع الضحكات المكتومة واللكمات التى يوجهها طلبة المعهد بعضهم لبعض فى السر . لحظة ثم استعادها الواقع ، وبدا لها أن «باولو » رجع وهى مستغرقة فى حلمها القصير ، وأنه أفلح فى الدخول على غفلة منها .

والواقع أن خطوات مسموعة كانت تتخلل الهزات والطقطقة التى كانت الريح تحدثها داخل الدار ، وأن شخصاً ما كان يسير وينزل السلم الداخلى ويعبر الغرف الأرضية ويدخل المطبخ ، وخُيل إليها أنها ما زالت تحلم . قسيس قصير القامة ، ممتلىء ، أسود الوجه بسبب لحيته التى لم تحْلَق منذ أيام ، وقف قبالتها وجعل ينظر إليها وهو يبتسم ، كان أَهْتَم ، والأسنان القليلة التى بقيت فى فمه علاها السواد من كثرة التدخين ، وكان فى عينيه الصافيتين نظرة تهديد ، ولكن كان من الواضح أنه يتخذ هذه الهيئة على سبيل المداعبة ، وعرفته فى الحال : إنه القس القديم . ومع ذلك لم ترتجف أوصالها . وقالت لنفسها : «ما هو إلا حلم » ، ولكن خيل إليها أنها تقول قولها هذا التماساً للشجاعة ، وأن ماتراه إنما هو الحقيقة ، وقالت له :

ـ تفضل .

وأخلت له كرسيها ليجلس أمام المدفأة . وجلس ، ثم شمر جُبته قليلا ، فانكشف جوربه الأزرق الحائل اللون والذى علته الثقوب ، وقال ببساطة :

ـ حيث إنَّكِ هنا بدون عمل فباستطاعتك أن ترتقى جوربى «يا ماريا المجدلية» فما من امرأة أصبحت تعنى بأمرىَ .

وقالت لنفسها : «أهذا هو القس المرعب ؟ واضح أننى أحلم » وأرادت أن تسخر منه فقالت :

ـ أنت ميت ، فما حاجتك إلى جورب ؟

ـ مَنْ أدْرَاكِ أنى ميت ؟ أنا بالعكس على قيد الحياة ، وهٰأنذا ـ عَمَّا قريب ـ سأطرد ابنك وأطردك من أبرشيتى . من سوء حظكما أنكما أردتما المجىء إلى هنا ، كان الأفضل أن تجعلى ابنك يحترف مهنة أبيه ، ولكنك امرأة طموحة ، أردْتِ أن تعودى كسيدة إلى المكان الذى كُنت فيه خادمة ، الآن ستجنين ما كسبت يداكِ .

ـ سنغادر البلد !

قالتها بذلة وألم ، وأردفت قائلة :

ـ هذا أبغيه . وسواء كُنْتَ رجلاً حقيقيًّا أمْ شبحاً فاصبر علينا أياماً وسنرحل .

ـ إلى أين تذهبان ؟ هنا أم هناك الأمر واحد . خير من ذلك أن تسمعى نصيحة شخص يفهم فى هذه الأمور : اتركى ابنكِ الآن لمصيره ، ودَعيه يعرف المرأة وإلاَّ أصابه ما أصابنى . . أيام كنت شابًّا كنت عزوفًا عن النساء، وعن متع الحياة ، أنا أيضًا كنت أريد أن أدخل الجنة ، ولم يَدْرِ بِخَلَدِى أن الجنة إنما هى على الأرض . وحين بانت لى الحقيقة كان الوقت

قد فات وذراعى لم يعد بوسعها أن تقطف الفاكهة من الشجرة ، كما أننى لم أعد قادرًا على ثنى ركبتى للنهل من ماء النبع ؛ لذلك بدأت أشرب النبيد ، وأدخن الغليون ، وألعب الورق مع حثالة شباب البلدة . أنتِ التى تسمينهم بالحثالة ، وماهم إلاَّ شبان خيرون يستمتعون بالحياة قدر استطاعتهم . صُحبتهم طيبة ، تبعث فى النفس الحرارة والطرب كصحبة صبية يقضون عطلتهم المدرسية ، مع فارق واحد ، هو أنهم فى عطلة دائمة، وهم لهذا السبب أكثر مرحاً ولا مبالاة من الصِّبية الذين ينغص عليهم سعادتهم اضطرارهم للعودة إلى المدرسة .

وبينما كان القس يقول هذا الكلام كنت الأم تقول لنفسها : هو يتحدث هكذا لأنه يريد أن يقنعنى بترك ابنى « باولو » يورد نفسه موارد الهلاك . الذى أرسله هو إليه ربه وسيده ، الشيطان ، يجب أن ألزم جانب الحذر . ومع ذلك وبالرغم منها أصغت إليه باهتمام ، وكادت تعترف بأنه محق ، كانت ترى أن ابنها «باولو » بالرغم من جهودها ، قد يودى بنفسه ويدخل هو الآخر فى «العطلة المدرسية » وأخذ قلبها ، قلب الأم ، يلتمس له الأعذار . قالت :

ـ قد تكون على صواب .

قالتها بمزيد من الذلة والألم ، ولكن قالتها هذه المرة مع شىء من التمثيل . . وأضافت :

ـ أنا امرأة مسكينة جاهلة ، لا تفقه شيئاً ، ولَكِنْ هناك شىء واحد أعلمه علم اليقين ،هو أن الله خَلَقَنا فى هذه الدنيا لنتعذب .

ـ الله خلقنا فى هذه الدنيا لكى نتمتع ،وهو يعذبنا عقاباً لنا على كَوْنِنَا

جهلنا كيف نستمتع بالحياة . أجَلْ أيتها المرأة الحمقاء ، الله خلق العالم بكل ما فيه من جمال ثم أنعم به على الإنسان لكى يستمتع به . من لم يفهم هذا فقد خاب أيًّا كان الأمر . أنا ـ خلافاً لما تتصورين ـ لا يهمنى أن أقنعك بوجهة نظرى ، الذى يهمنى هو إقصاؤك من هنا أنت وابنك « باولو » ، من سوء طالعكما أنكما أردتما المجىء إلى هنا .

ـ سنرحل ، كن على يقين من هذا . سنرحل سريعاً . أستطيع أن أعدك بهذا . أنا لا أفكر فى شىء آخر .

ـ أنت تتحدثين هكذا لأنك تخشيننى ، ومع ذلك فليس من صواب الرأى أن تخافى . أنتِ تظنين أننى أنا الذى منعتك من السير ، ومنعت أعواد الثقاب من الاشتعال ، جائز أننى أنا الذى فعلت ذلك ، ولكن ليس معنى هذا أننى أريد بك أو بابنك « باولو » شَرًّا ، كل ما أريده هو أن ترحلا . ليكن معلوماً لَكِ أنكِ ـ إنْ لم تَفِ بوعدك ـ ستندمين ، وساعتها سيكون بيننا لقاء وسأُذَكِّرك بحديثنا هذا ، أما الآن فسأترك لك جوربى هذا لترتقيه .

ـ حسناً ، سأرتقه .

ـ أغمضى عينيكِ إذن ، فإنى لا أريد أن ترينني عارى الساقين ، آى . . آى ! وضحك وهو ينزع الحذاء من إحدى قدميه بطرف الحذاء الآخر وينحنى ليخلع الجورب . وقال :

ـ ما من امرأة رَأَتْ لحمى برغم كل أقاويلهم . وأنتِ أكبر سنًّا وأقبح وجهًا من أن تكونى الأولى . هذه هى أول فردة وهذه هى الثانية ، سأعود عمّا قريب لآخذهما .

وفتحت عينيها وانتفضت . كانت بمفردها من جديد ، فى المطبخ

الذى يحيط به صوت الريح . وهمست وهى تتنهد : « ياله من حلم ، يارب! » . وبالرغم من ذلك انحنت لتبحث عن الجورب ، وبدا لها أنها تسمع وَقْعَ خُطَا الشبح الذاهب . ولكنه لم يخرج من الباب .

حين وجد « باولو » نفسه فى المرج بعد أن ترك المرأة خُيِّل إليه هو الآخر أن فى الريح شيئاً حيًّا وغامضاً ، شيئاً كان يدفعه ويدفعه ، ويجعله يشعر بالبرد بعد الحلم الساخن . وشعر فى الوقت ذاته بسترته تلتصق بظهره ، وذكره هذا الاتصال بالمرأة وهى ترتبط به فى عناق الحب ، فاقشعر بدنه ، وعند منحنى الكنيسة بلغ من قوة الريح أنه اضطر لحظةً إلى التوقف ، وإلى تنكيس رأسه وهو يمسك قبعته بإحدى يديه وسترته باليد الأخرى ، ووجد صعوبة فى التنفس ، وأحس بمثل الدوار الذى أحست به أمه فى سفح الوادى حين تبينت أنها حامل .

هو أيضاً أحس ، فى شعور اختلط فيه التقزز بنشوة السكر ، بأن فى داخله فى هذه اللحظة شيئاً يولد . . إنه شىء فظيع وعظيم . وأدرك ـ للمرة الأولى بوعى كامل ـ أنه يعشق المرأة عشقاً حسيًّا ، ويجد سعادة فى هذا العشق. لقد كان حتى ساعات قليلة مجرد وهم ، وكان يقول لنفسه ولها : إنه يحبها حُبًّا روحيًّا فحسب ، لكنه أقر بأنها هى التى نظرت إليه . منذ أول لقاء لهما كانت عيناها تتلمسان عينيه بنظرة تستجدى العون والحب ، وشيئًا فشيئًا وقع فى شِبَاكِ هذه النظرة ، واقترب من هذه المرأة يحدوه شعور من الإشفاق . وكانت الوحدة التى تكتنفهما تدفع بأحدهما نحو الآخر . وبَعْدَ العينين بحثت اليدان عن اليدين ، وشَدَّتَا عليهما .

وفى تلك الليلة تبادلا القبلات ، وإذا بدمه ـ الذى ظل هادئًا سنوات ـ

يضطرم كله كسائل يغلى . . لقد خَضَع الجسد ، هُزِمَ وانْتَصَر فى وقت واحد، وعرضت عليه المرأة أن يهربا من البلدة وأن يعيشا أو يموتا معاً ، وقَبِلَ هو هذا العرض فى نشوة السُّكر ، واتفق الاثنان على التلاقى فى الليلة التالية ليُحْكِمَا تدبير الأمر .

على أن حقيقة العالم الخارجى ، وهذه الريح التى بدا له أنها تريد أن تُجَرِّدَهُ من ثيابه ، عصفتا الآن بغلالة الوهم ، وتوقف وهو يلهث أمام باب الكنيسة . كان يشعر بكيانه وقد تجمد ، وبدا له أنه عارٍ كما ولدته أمه فوق البلدة الصغيرة ، وغلب على ظنه أن أهل الأبرشية الفقراء جميعًا يرونه على هذه الصورة فى نومهم المكدود ، يرونه عاريًا ، ملطخًا بسواد الخطيئة . وها هو ذا ـ على الرغم من ذلك ـ يفكر فى أفضل الطرق للهرب مع المرأة ، وقد فهم منها أنها ذات مال وفير .

وهَمَّ بالعودة على عقبيه فورًا لإثنائها عن هذه الفكرة ، بل خَطَا بالفعل خطوات بطول الجدار الذى مرت به الأم قبلها بقليل ، ولكنه رجع أدراجه مضطرب الوجدان أمام باب الكنيسة ، جثا على ركبتيه ، وأسند إلى الباب جبهته وهو يهتف بأنين :

ـ خَلِّصْنى، ياإلهى !

وشعر بطرف معطفه الأسود يرفرف على منكبيه كالجناح ، وظل لحظات هكذا كأنه نسر ثبتوه حيًّا على الباب بمسامير . كان كيانه كله نهباً لصراع رهيب ، وكانت أنفاسه تتلاحق بقوة تفوق قوة الريح التى تهب على الهضبة، ودارت فى نفسه معركة ضاربة بين غريزة الجسد العمياء وبين متطلبات الروح، ونهض بدون أن يعرف أى الطرفين كان المنتصر ، وشعر مع ذلك

بأنه أكثر وعياً بوضعه من ذى قبل ، وقف من نفسه موقف القاضى ، واعترف لنفسه بأن ما يرعبه ويفزعه ليس مخالفة الرب ومحبته والرغبة فى التسامى بنفسه والاشمئزاز من ذنبه بقدر ما هو خشيته من الفضيحة . ووجد فى هذا الحكم القاسى الذى أصدره على نفسه ما يشد أَزْرَهُ ويعده بالخلاص ، ولكنه كان يشعر فى صميم وجدانه بأنه أصبح الآن متعلقًا بالمرأة تعلقه بالحياة ذاتها ، كان يحملها معه إلى بيته ، وإلى فراشه ، وكان يهفو إلى النوم معها ملتحفًا بشبكة شعرها الطويل التى لا فكاك منها . وتحت أَلَمِه الظاهر كان يشعر فى أعماق سريرته بسعادة مستعرة ، كأنها نار فى باطن الأرض .

لكنه ما كاد يفتح باب الأبريشية حتى جَبَهَهُ بصيصُ النور المنبعث من المطبخ ، والذى كان يضىء غرفة الطعام الصغيرة والمدخل ، ثم رأى الأم جالسة كأنها تسهر إلى جوار ميت أمام النار الخامدة . وبشعور من التخوف الشديد لم يفارقه بعدها قط فَهِمَ الحقيقة فجأة بكل أبعادها . وعَبَرَ الغرفة الصغيرة وهو يتبع شعاع النور ، وتعثر على عتبة باب المطبخ ، ووصل إلى موقد المدفأة بيدين ممدودتين إلى الأمام ، كما لو كان يتوقى السقوط . وسأل أمه بجفاء :

ـ ما الذى جَعلكِ تسهرين حتى هذه الساعة ؟

واستدارت الأم وقد علا وجهها شحوب شديد من أثر الرؤيا التى رأتها ، ولكنها كانت هادئة ثابتة الجنان ، شديدة ، وبحثت عيناها فى عينى ابنها فى حين كان هو يتجنب نظراتها ، وقالت :

ـ كنتُ فى انتظارك يا « باولو » . . أين كُنت ؟

وأحس بأن أى كلمة يفوه بها غير الصدق لن تكون إلا كوميديا لا طائل

من ورائها ، ومع ذلك لم يكن هناك مناص من الكذب ، وأجاب بسرعة :

ـ كنت أعود مريضة .

وبدا صوته القوى ـ لوقت قصير ـ وكأنه يبدد حلمها المزعج ، وعلى مدى لحظة أشرق وجه الأم من الفرح ، ولكن الظل لم يلبث أن عاد يظهر من جديد بعلى مُحَيَّاها وعلى فؤادها . وقالت بِرِقَّة وهى تخفض عينيها بشعور من الخجل ، ولكن بدون مزيد من التردد :

ـ اقْتَرِبْ ، لى معك حديث .

ولم يقترب ، ولكنها استمرت تقول بصوت وَانٍ ، وكأنها تُسِرُّ إليه شيئاً فى أذنه :

ـ إننى أعرف أين كنت . كنت أسمعك وأنت تخرج ليالى عديدة . وقد تَعَقَّبْتُكَ هذا المساء ورأيت المكان الذى دخلته يا « باولو » . . فَكِّرْ فيما تعمل . وصمت ، وبدا عليه أنه لم يسمع ، وعادت الأم ترفع عينيها ، ورأته فوقها وقد كساه شحوب كشحوب الموتى ، لا يتحرك على ظله الملقى على الحائط كأنه المسيح على الصليب . ودت لو صاح وأعلن براءته ، أما هو فتذكر الصيحة التى صدرت من أعماق نفسه أمام باب الكنيسة . ها قد استجاب له الإله وأرسل له أمه ذاتها لكى تنقذه ، وتمنى أن ينكفىء ويسقط على حجرها ويرجوها أن تمضى به لِلتَّوِّ بعيدًا عن هذا البلد . وفى الوقت ذاته شعر بذقنه يختلج من المهانة والغضب : المهانة لأنه رأى انكشاف ضعفه ، والغضب لأنه كان موضع رقابة وتجسس ، وكان يحز فى نفسه أيضًا أن يسبب لأمه هذا العذاب . ورأى فجأة أنه لم يكن بحاجة لإنقاذ نفسه فحسب . بل لإنقاذ المظاهر أيضاً . وقال وهو يقترب منها ويضع يدًا على رأسها :

ـ أمى ، قلتُ لكِ : إننى كنت أعود مريضة .

ـ ليس فى ذلك البيت مرضى .

ـ ليس كل مريض طريحَ الفراش .

ـ إذن فمرضُكَ أخطر من مرض المرأة التى تذهب لزيارتها . أنت محتاج إلى علاج يا « باولو» . أنا ـ وإنْ كنت امرأة جاهلة ـ فإننى أمك . وأنا أقول لك : إن الخطيئة مرض أسوأ من كل مرض ؛ لأنها تصيب الروح .

وأضافت وهى تمسك يده وتجره إلى أسفل لكى ينحنى وبسمعها جيدًا :

ـ ثم إنك يابنى لست الوحيد الذى عليكَ إنقاذ نفسك . . روحها هى يجب أيضاً ألاَّ تقع فى التهلكة . . فَكِّرْ فى هذا ، كذلك لا يصح أن تؤذيها فى هذه الدنيا .

كان هو قد انحنى قليلا ، ولكنه حين سمع قولها انتصب فجأة كأنه عصًا من الصلب ، لقد أصابته أمه فى الصميم ، أجل ، إنه خلال هذه الساعة كلها ، ساعة الوساوس والهواجس التى قضاها بعد أن ترك المرأة ، لم يكن يفكر إلا فى نفسه وحاول أن يسحب يده من يد أمه الجافة الباردة لكنه شعر بها تقبض عليها بعزم ، وخُيل إليه أنه مقيد ومعتقل، وأنه يُساق إلى السجن . وفكر فى الرب من جديد ، الرب هو الذى كان يقيده ، ولا بد أن يسلم له أمره ، ولكنه شعر أيضًا بغيظ ويأس المقبوض عليه ، المذنب الذى لا يرى سبيلا إلى الفرار ، وقال بغلظة وهو يسحب يده بقوة :

ـ أنا لم أعد طفلاً ، وأنا أعرفُ الناسِ بما فيه خيرى وشرى . وشعرت الأم بجسمها كله يتجمد، فقد فهمت أن ابنها اعترف لها بخطئه .

قالت :

ـ لا ، يا « باولو » . أنت لا تدرى ما هو شر لك . لو كنت تدريه ما تحدثت هكذا .

ـ وكيف كان يجب أن أتحدث ؟

ـ ما كان يجب أن تَحْتَدَّ ، وكان يجب أن تقول : إنه ليس بينك وبين هذه المرأة ما يشين ، ولكنك لم تَقُل هذا ؛ لأن ضميرك لا يسمح لك بقوله ، إذن فالأولى ألاَّ تتحدث . . لا تتحدثْ ، أنا لا أطلب منك أن تفعل ، ولكن تَدَبَّرْ ما أنت بسبيله يا « باولو » . . تدبره جيدًا .

وصمت « باولو » وابتعد على مَهَل ، وحين وصل إلى منتصف المطبخ توقف فى انتظار أن تواصل حديثها . . وقالت الأم :

ـ «باولو » ، لم يعد لَدَيَّ ما أقوله لك ، وما بى رغبة فى أن أقول لك شيئًا ، ولكننى سَأُحَدِّثُ عنك ربِّى .

وقفز ليقترب منها من جديد ، وبدا كما لو كان يريد أن يهزها ، والتمعت عيناه وصاح :

ـ كَفَى ! حسناً تفعلين بعدم الخوض فى هذا الموضوع بعد الآن ، لا معى ولا مع أى شخص كان ، احتفظى بأوهامك لنفسك .

وقامت الأم فى شدة وحزم وأمسكت به من ذراعه وأرغمته على النظر إليها وجهًا لوجه ، ثم تركته وعادت إلى الجلوس ويداها مشبوكتان فى حجرها ، وإبهاماها تضغط إحدهما على الأخرى التماسًا للقوة . وهَمَّ بالانصراف ، ولكنه راجَعَ نفسه وأخذ يذرع المطبخ ذهاباً وإيابا ، وصوت الريح يصاحب حفيف ردائه الذى كان يشبه حفيف ملابس النساء ؛ فإنه كان قد اقتنى جُبة من الحرير ، ومعطفاً من قماش أملس .

وفى هذه اللحظة ، لحظة الشكوك والهواجس ، وقد أحس أن دوامة شفقته ، بدا له أن هذا الحفيف أيضًا يخاطبه ويقول له : إن حياته الآن أصبحت سلسلة من الأخطاء والطيش والأفعال الذميمة ، كل شىء كان يوجه إليه الخطاب : الريح فى الخارج كانت تذكره بوحدة شبابه الطويلة ، وفى الداخل ، منظر الأم المكلومة ووقع خطواته ، وحتى ظله وهو يسير : إلى الأمام ، وإلى الخلف ، إلى الأمام ، وإلى الخلف . . كان يريد أن يطأ ظله بقدميه ، أن يقهر ذاته . وقال لنفسه بكبرياء : إن خلاصه ليس محتاجاً إلى عون فوق الطبيعة كذلك الذى كان يبتهل إلى الله أن يمده به ، ولكن هذه الكبرياء ما لبث أن أرعبته . وقال لأمه وهو يستدير ويقترب منها :

ـ قومى الآن واذهبى إلى فراشك .

ولما رآها منكسة الرأس كالنائمة لا تتحرك انحنى ليمعن فيها النظر ، وإذا بها تبكى فى صمت . وهتف :

ـ أمى

قالت بدون أن تتحرك :

ـ لا . . أنا لن أتحدث أبدًا إليك أو إلى أى شخص آخر عن هذا الموضوع ، ولكننى لن أبرح مكانى هذا إلاَّ لأترك الأبرشية والبلدة على ألاَّ أعود إليهما أبدًا إذا لم تقسم لى ألاَّ تضع قدماً فى ذلك البيت بعد الآن .

ونهض قائماً وقد انتابته دوخة ، واستبدت به من جديد فكرة الوعد بأى شىء تطلبه أمه على اعتبار أن الله ذاته هو الذى يطلبه بواسطتها ، وفى الوقت ذاته صعد إلى شفتيه فيض من الكلام المرير ، ونازعته نفسه للصياح ولوم أمه واتهامها بأنها خرجت به من البلدة وحملته على سلوك طريق غير



طريقه ، ولكن ما الفائدة ؟ هى غير قادرة حتى على فهم هذا الكلام : «إليكِ عنى ، إليك عنى ! » وحرك يده حركة مَنْ يطرد من أمام وجهه ظلالاً مارَّة ، ثم مد هذه اليد فجأة ووضعها على رأس أمه ، وبدا له أن أصابعه المفتوحة بعض الشيء استطالت وأصبحت أشعة من نور . وقال :

ـ أقسم لك ياأمى ألاَّ أعود أبدًا إلى ذلك البيت .

وأسرع بالابتعاد وقد خيل له أن كل شىء قد انتهى . لقد نجا ، ومع ذلك سمع أمه ـ وهو يعبر الغرفة الصغيرة الملاصقة ـ وهى تنتحب بحرقة ، وكأنها تبكى وفاته .

وحين عاد إلى حجرته لفحه عطر الورد ومنظر الأشياء التى كأنها أفعمت بهواه الطاغى وتلونت به . وأخذ يروح ويجىء فى الغرفة بدون أن يدرى سببًا لذلك . وفتح النافذة ، وأسلم رأسه للريح ، وبدا له أنه ورقة ـ من آلاف أوراق الشجر الذى يحف بالجسر دفع بها فى الفراغ ، تارة فى الظل الرمادى ، وتارة فى ضوء القمر المنير لكى يعبث بها الريح والسحب . وأخيرًا نهض وأغلق النافذة وقال بصوت عالٍ :

ـ لِنكُنْ بشَرًا .

ونصب قامته ، وبدا له أن كيانه كله تَحَجَّرَ وفقد حرارته ، وأنه حبيس فى درعٍ من الكبرياء . لم يعد يريد أن يحس بجسده ، ولا بالألم ، ولا بالسعادة التى تخلفها التضحية ، ولا بحزن الوحدة . لم يكن يريد حتى أن يمثل أمام خالقه ليتلقى كلمة الموافقة التى تمنح للخادم الذى يؤدى عمله بروح طيبة . لم يكن يريد شيئاً من أحد ، كل ما كان يريده هو أن يمضى فى خط مستقيم وحده دون رجاء ، ومع ذلك كان يجفل من الذهاب إلى فراشه وإطفاء

المصباح . وأخذ يتلو رسالة القديس بولس الرسول إلى كنيسة كورنثوس ، ولكن الكلمات كانت تتراقص أمام عينيه وتجرى بطول الأسطر وكأنها تهرب . ما الذى أَبْكَى أمه بهذه اللوعة وقد أقسم لها بما أرادت ؟ ما مدى قدرتها على الفهم ؟ أجل ، إنها تفهم بحناياها ، حنايا الأم . . تفهم لهفة ابنها المميتة وصدوفه عن الحياة .

وفجأة صعد الدم إلى وجهه ورفع رأسه ليسمع صوت الريح ، وقال لنفسه : ما كان يجب أن أقسم « وابتسم ابتسامة غامضة ، ثم أضاف : «الشخص القوى حقًّا لا يقسم ، الذى يُقسم ـ كما أقسمتُ ـ شخص لا مانع لديه من الحنث بقسمه ، شأنى أنا » . وفجأة شعر بأن بالمعركة بدأت حقًا ، وأحس بذعر جعله يقوم ويذهب إلى المرآة ليحدق فى وجهه .

ـ هأنتذا أيها الرجل الذى يحمل علامة الإله إذا لم تتوكل عليه توكلاً كاملاً وقعت بلا رجعة تحت سلطان روح الشر .

وفى اللحظة ذاتها اتجه وهو يترنح إلى الفراش الضيق وارتمى عليه بملابسه واستسلم للبكاء . بَكَى وكتم بكاءه لكيلا يسمعه أحد ، بل لكيلا يسمعه هو نفسه . ولكنه كان فى قرارة نفسه يئن ويتوجع ويصرخ بجماع قلبه .

ـ رباه ، رباه ، خذنى إليك ، أبعدنى عن هذا المكان ! وأحس براحة نفسية حقيقية ، فقد بدا له أنه تعلق بطوق نجاة ، وأن هذا الطوق عبر به بحر أتراحه .

انتهت الأزمة ، وعاد يتدبر الأمر . أصبح كل شىء يبدو له فى وضوح منظرًا من المناظر التى تطل عليها نافذته تحت ضوء الشمس . إنه قسيس ، وهو مؤمن بالله ، وقد تزوج من الكنيسة ، ونَذَرَ نَذْرَ العفة ، هو ـ

باختصار- أشبه برجل متزوج لا ينبغى له أن يخون زوجته . . ما الذى أوقعه إذن فى هوى هذه المرأة ؟ وما الذى جعله يستمر فى هواها ؟ هو لايدرى بالضبط . من الجائز أنه يمر بأزمة حسية وقد ناهز الثامنة والعشرين من عمره . جسده الذى نام من طول الكبت ، أو بالأحرى ، الذى ظل مغلقاً فيما يشبه المراهقة الطويلة ، استيقظ من غفوته على حين غرة ومال لهذه المرأة؛ لأنها كانت أقرب النساء شبهاً به ، هى أيضاً لم تعد صغيرة السن ، وإن كانت لا تزال غريرة ومحرومة من الحب ، وكان بابها مقفلاً عليها كباب الدير .

هكذا كانت علاقتهما فى البداية : حب متنكر فى ثياب الصداقة ، لقد وقعا فى شبكة من الابتسامات والنظرات ، واستحالة أن يحب أحدهما الآخر، هذه الاستحالة ذاتها هى التى قربت أحدهما من الآخر . إن أحدًا لم يشك فى أمرهما ، وهما أنفسهما كانا يتلاقيان بلا اضطراب وبلا خوف وبلا رغبة حسية . ثم تسللت رغبات الحس شيئاً فشيئاً إلى هواهما العفيف ، وكانت كالماء الساكن يتسلل تحت جدار فيتصدع الجدار ثم ينهار.

كان يفكر فى كل هذا . وحين غاص فى أعماق ضميره اكتشف الحقيقة وعرف أنه اشتهى المرأة من نظرتها الأولى ، وأنَّ كُلاًّ منهما ملك الآخر من النظرة الأولى ، أما ما عدا ذلك فلم يكن سوى خدعة ، كان يحاول عن طريقها أن يبرىء ساحة نفسه أمام نفسه .

فليكن ، لقد قَبِلَ الحقيقة ، ولابد مما ليس منه بد ، تلك طبيعة البشر : أن يعانى المرء وأن يحب ، وأن يتحد مع من يحب ، وأن يعانى كَرَّةً أخرى . . أن يُحسن ، وأن يتقبل الإحسان ، وأن يُسىء ، وأن يتحمل الإساءة . مهما فَكَّرَ فإن تفكيره لا يزيح شيئاً من الوساوس التى ينوء بها قلبه ، الآن فهم

المعنى الحقيقى لهذه الوساوس : إنه الموت نفسه : « أليس هذا أيضًا ضرباً من الغرور ؟ » . بعد أن تمر لحظة التمتع بالحب تستعيد الروح سلطانها على المرء وتعود ، بل تلوذ ، بقدر أكبر من الرغبة فى العزلة بسجن الجسد الفانى الذى تلبسه ، لماذا إذن يتعذب فى هذه الوحدة ؟ ألم يقبلها ويَـحْيَهَا طوال هذه السنين ، أنضر سنى حياته ؟ وقال لنفسه : « حتى إذا تأتّى لى أن أهرب حقيقة مع « آنييس » وأن أتزوجها سأظل وحيدًا داخل نفسى بنفس الدرجة » . ومع ذلك فإن مجرد نطق اسمها ، بل مجرد احتمال العيش معها ، جعلاه ينتفض . . ها هو ذا يشعر من جديد بالمرأة الطويلة متمددة إلى جواره ، ويبدا له كأنه يحتضنها ، نضرة وناعمة كغصن الأثل ، وأنه يتحدث إليها من فوق عنقها الدافىء ، وشعرها المحلول الذى كانت له رائحة ساخنة نوعًا ما ، ووبرية نوعاً ما كباقة من الزعفران . وتلا عليها وهو يعض الوسادة كل أبيات « نشيد الأنشاد »! وحين انهت هذه قال لها : إنه سيعود إليها إذا كان الغد ، وإنه قرير العين ؛ لأنه يسبب الألم لأمه ويغضب ربه ، وإنه أقسم ، ولأنه أسلم نفسه للنوم والخرافة والرعب ، وأنه سيحطم الأغلال كلها ويعود إليها .

ثم عاد يُعمل الفكر من جديد ، وكما أن المريض يكتفى على الأقل بمعرفة تشخيص ذاته فسيكتفى هو بمعرفة السبب فى حدوث كل هذا . كان بدوره يريد ـ كما فعلت أمه ـ أن يستعيد طريق حياته من أوله .

وصحب صوت الريح أبعد ذكرياته وأكثرها غموضًا . إنه يرى نفسه فى الحوش . . أين ؟ لايدرى . لعله حوش المنزل الذى كانت أمه تعمل فيه كخادمة . . تتشعلق مع أطفال صغار آخرين بجدار . وكان فى أعلى الجدار قطع من الزجاج المدبب كأنصال الخناجر ، لكن هذا لم يكن يصد

الأطفال عن صعوده ، ولو أدى ذلك إلى جرح أبدانهم . كانوا يجدون لذة فى جرح أنفسهم وإظهار دمهم الذى يسيل من الجرح للآخرين ، ثم مسحه تحت إبطهم ، وهم يتصورون أنهم بذلك يخفون جراحهم عن الأعين ، الشيء الوحيد الذى كانوا يرونه من أعلى الحائط هو الشارع . . الشارع الذين كانوا أحرارًا فى الذهاب إليه ، لكنهم كانوا مولعين باعتلاء الحائط ؛ لأن ذلك ممنوع . . وكانوا يتسلون بإلقاء الحجارة على الأشخاص القليلين الذين يمرون فيه ، ثم يختفون تتنازعهم نشوة الفَعْلَة التى فعلوها ، والخوف من أن يكتشفهم أحد .

وثمة فتاة ذات عاهة ، خرساء بكماء ، كانت تجلس أسفل كتلة خشب ضخمة فى آخر الحوش ، ومن مكانها هذا كانت ترنو إليهم بعينين كبيرتين معتمتين تختلط فيها الضراعة والصرامة . كان الأطفال يخشونها ولا يجرءُون على إساءة معاملتها ، وكانوا يخفضون أصواتهم إذا اقتربوا منها ، كما كان فى إمكانها سماعهم . وكانوا يدعونها أحياناً لمشاركتهم فى اللعب ، وحين كان هذا يحدث كانت الطفلة تضحك بسعادة شبه جنونية ، ولكنها لم تكن تتحرك من ركنها . إنه يرى هاتين العينين العميقتين اللتين ملأهما نور من الألم والرغبة ، يراهما من جديد من أعماق ذاكرته كما كان يرى صاحبتهما

وقتها فى آخر الحوش الموحش ، وبدا له أنهما كانتا تشبهان عينى «آنييس»

ثم رأى نفسه من جديد فى الشارع ذاته الذى كان يرمى منه الحجارة على المارة ، ولكن إلى أسفل قليلا ، عند المنعطف المؤدى إلى حارة رطبة مغلقة فى آخر مجموعة من الأكواخ القذرة السوداء . كان يقطن بين الشارع والحارة فى بيت ناس طيبين نسوة بدينات جادات كن يغلقن الأبواب والنوافذ حين يأتى

المساء ، ولا يستقبلن إلا نساء أخريات وقسساً ، وكُنَّ يُمازِحْنَ ضيوفهن ، ولكن ضحكاتهن كانت من التأدب بحيث لا تكاد تفارق شفاههن .

وذات مرة سأله أحد هؤلاء القسس بعد أن أمسكه من كتفيه وضمه بقوة ورفع وجهه الخجول بيده :

ـ أتريد حقًّا أن تكون قسيسًا ؟

وأومأ برأسه علامة الإيجاب . وبعد أن تلقى صورة مقدسة وكعكة ظل حيث كان في ركنه يستمع إلى حديث النساء والقسس ، كانوا يتحدثون عن قسيس « آر » ، ويقولون : إنه يذهب للصيد ، ويدخن الغليون ، ولا يحلق لحيته ، وإن الأسقف لم يرد مع ذلك أن يوقفه لصعوبة العثور على قس آخر يقبل الذهاب إلى هذا البلد النائى . وعلاوة على ذلك فإن هذا القس المستهتر كان يهدد بأن يكتف أى شخص يجرؤ على نزع المنصب منه بالحبال ويلقيه فى النهر .

ـ أسوأ مافى الأمر أن أهل « آر » البسطاء كانوا يحبونه كما كانوا يهابونه ، ويخشون مغبة السحر الذى يمارسه . وكان بعضهم يرى أنه « المسيح الدَّجَّال » ، وكانت النساء يقلن : إنهن سَيُسَاعِدْنَهُ فى تكتيف خليفته و إلقائه فى النهر .

ـ أَسَمِعْتَ ، يا « باولو » ؟ إذا أصبحت قسيساً وأردت أن تذهب إلى بلد أمك فكن على استعداد للشرب من ماء النهر .

قالت « مارييلينا » هذا على سبيل المزاح . « مارييلينا » ، المرأة التى كانت تقوم على أمره ، وحين كانت تسرح شعره كانت تجذبه إليها وببطنها الساخن وصدرها البض كانت تبدو له كأنها مخدة حُشِيَتْ قُطْناً . كان يشعر

بمودة كبيرة لهذه « الماريلينا » ، فقد كانت ـ على الرغم من جسدها النابض بالشهوة ـ مليحة الوجه ، وكانت وجنتاها معروقتين بلون الورد ، وكان فى عينيها الكستنائيتين عذوبة ذابلة . كان ينظر إليها من تحت إلى فوق وكأنه ينظر إلى فاكهة ناضجة على الشجرة . . لعلها كانت حبه الأول . ثم بدأت أيام معهد الكهنوت . . أمه هى التى أخذته إلى المعهد ذات صباح رائق الزرقة من شهر أكتوبر تعبقه رائحة سلافة العنب . هذا هو الشارع ، وفى أعلاه القنطرة التى تصل ما بين المعهد وبيت الأسقف . كان شارعاً صاعدًا مقدساً ككورنيش كبير لإطار فيه منظر للدور الصغيرة والأشجار والسلالم الجرانيتية ، وحوش ساحة الكتدرائية على البعد . وكانت الأعشاب الحديثة تنمو بين الحجارة أمام بيت الأسقف . ومر رجال يمتطون جيادًا طويلة الأرجل ، مُسْتَحِيًا من نفسه بعض الشىء ، ومن أمه بعض الشىء ، أجل ، لماذا لايقولها بصراحة : كان يخجل من أمه لأنها خادمة ، ولأنها تنتمى إلى هذه البلدة ، بلدة القوم البلهاء . وهو لم يتغلب على هذا الشعور الغريزى الوضيع إلاَّ فى وقت لاحق ، فى وقت لاحقٍ بكثير ، تغلب عليه بإرادته وبكبريائه . لقد كان ـ بلا سبب فى وقت لاحق بكثير ـ تغلب عليه بإرادته وبكبريائه . لقد كان ـ بلا سبب معقول ـ يخجل من أصله ، ثم أصبح يعتز به أمام نفسه وأمام خالقه ، واختار لإقامته هذا البلد الصغير المُجدب، وخضع لإرادة أمه ، واحترم التعليمات المتواضعة ، والعادات التى لامعنى لها .

لقد اقترنت ذكرى أمه الخادمة ـ التى كانت فى الحقيقة أقل من خادمة ؛ إذ أنها كانت مكلفة أحقر الأعمال فى مطبخ المعهد الدينى ـ بأكثر ذكريات فترة مراهقته إيذاءً لكرامته ، ومع ذلك فإنها كانت تخدم الآخرين مِنْ أجله هو ،

وكان رؤساؤه يضطرونه إلى الذهاب إليها وتقبيل يدها ليعتذر عَمّاً كان يرتكبه من مخالفات ، هذه اليد التى كانت أمه تجففها على عجل بالممسحة كانت تفوح منها راحة الصابون ، وكانت مُتهرئة كجدار عتيق ، وكان يشعر ـ وهو يُقبلها ـ بذلة وغضب ، وكان يطلب المغفرة من الله ؛ لأنه لا يستطيع أن يسألها المغفرة . وعلى هذا النحو عرف الرب من خلال أمه فى مطبخ معهد الكهنوت الرطب المدخن ، الرب الموجود فى كل مكان : فى السماء ، وفى الأرض ، وفى كل شىء .

وفى لحظات التجلى حين كان يفكر ـ وعيناه مفتوحتان فى ظلام غرفته الصغيرة ـ وهو يقول لنفسه ، وكأنه فى حلم : « سأكون قسيساً ، وسَتُخَوَّلُ لى القُدْرة على تقديس القربان » كان يفكر أيضاً فى أمه ؛ ولأنه لم يكن يراها على البعد أحبها ، واعترف لها بالعظمة والفضل ، فهى التى ـ بدلا من إرساله لحراسة الماعز أو لنقل أكياس الدقيق إلى الطاحونة كما كان يفعل أسلافه ـ جعلت منه رَجُلَ دينٍ قادرًا على تقديس القربان

بهذا الشكل كان يفهم رسالته ولم يكن يعرف شيئاً عن العالم . . احتفالات الأعياد الدينية الكبرى كانت أكثر ذكرياته بهجةً وأكثرها إشباعا لحواسه ، إنها لا تزال تعاوده وتذكره ـ عبر ولولة هواجسه الحاضرة التى لا تنتهى ـ بمشاعر الفرح والضوء التى كانت تغمره ، وهى لا تزال ماثلة أمامه كأنها صور كبيرة حية . هاهى ذى موسيقا الأرغن فى الكتدرائية ، والأسرار التى كانت توحى بها احتفالات الأسبوع المقدس ، تمتزج بألمه الحاضر وبِهَمِّ الحياة والموت ، مما كان يسحقه فى فراشه كالمسيح فى قبره . المسيح الميت الذى سيبعث حيًّا ، ولكن أيضا المسيح الذى لا يزال لحمه يدمى ، مازال الخل يحرق فمه .

وخلال فترة من فترات البلبلة الدينية التى كانت تعتريه عرف المرأة للمرة الأولى كان التفكير فى هذا الأمر يبدو له حتى هذه اللحظة أشبه بحلم ، حلم غريب ، لا هو بالمزعج ولا هو بالجميل . كان يذهب فى كل عيد لزيارة السيدات اللاتى كان يعيش فى كنفهن فى صباه ، وكُنَّ يستقبلنه وكأنه أصبح بالفعل من رجال الدين . كُنَّ يرفعن الكُلفة معه ويُبدين المرح ، ولكن دائما مع مراعاة الأصول . وكان وجهه يَحْمَرُّ حياءً حين يقع نظره على «ماربيلينا» ، يحمر حياء مع شىء من الاحتقار لنفسه ؛ لأنها بالرغم من كونها لا تزال تروق له كانت تبدو له فى واقعيتها الفجة بدينة وبضة وغير متناسقة الأعضاء ، ومع ذلك كان خصرها وعيناها العذبتان تستثيره . وكثيراً مادعته وأخواتها لتناول الطعام أيام الأعياد .

وذات مرة ، فى أَحَدِ السَّعَف ، وبينما كن يتأهبن وينتظرن وصول ضيوف آخرين ، خرج هو ، وكان قد وصل فى ساعة مبكرة إلى بستان الفاكهة ، وسار بطول حائط السور تحت الأشجار التى كستها أوراق فى لون الذهب ، وكانت السماء زرقاء وكان فى زرقتها بياض كبياض اللبن الحليب ، وكان الجو حارًا ورطباً بفعل الرياح الشرقية ، وكان يسمع على البعد غناء طائر الوقواق ، وعلى حين فجأة ، بينما كان يشبُّ على طرف قدميه لكى يقطف ـ كما يفعل الأطفال ثمرة من الراتنج من شجرة لوز ، رأى فى الحارة التى تقع خارج حائط السور عينين خضراوين ذواتى حدقتين كبيرتين مصوبتين إليه ، وظن أنهما عينا هرة ، وواقع الأمر أن صاحبتهما كانت المرأة التى ترتدى ثوباً رمادىَّ اللون وتجلس متكومة على نفسها على سُلم بابٍ صغير أسود فى آخر الحارة .

كان فيها شىء أشبه بِالسَّنوريات ، إنه يراها الآن بوضوح أمامه ، ويبدو

له كأنه لايزال يمسك بين سبابته وإبهامه بثمرة الراتنج الرخوة ، وقد عجزت عيناه المسحورتان عن ترك عينيها ، ويرى فوق بابها نافذة صغيرة يحيط بها شريط أبيض عليه صليب صغير . إنه يعرفها جيدًا من أيام صباه ، ويعرف هذا الباب الصغير وهذه النافذة ، أما هذا الصليب الذى وُضِعَ اتقاءً للغواية فكان يضحكه ؛ لأن المرأة التى كانت تقطن الدار الصغيرة ـ واسمها « ماريا باسكا » ـ كانت امرأة ضائعة . هاهى ذى الآن أمامه بمنديلها ذى «الشراشير » الأبيض ، والذى تنزل عليه قطعتان من المرجان كقطرتين طويلتين من الدم .

إن « ماريا باسكا » بوجهها الحلو الشاحب ، لا تكف عن التطلع إليه ، أخيرًا ابتسمت له دون أن تتحرك ، وقد زادت أسنانها البيضاء المزمومة وعيناها اللتان بدا فيهما تعبير من القسوة من تعبيرها السنورى . على أنها تركت يديها تسقطان فجأة على حجرها ، ورفعت رأسها فى حزن وجدية ، وظهر رجل ضخم على رأسه قُبَّعَة مائلة إلى جنب لتخفى وجهه ، ويسير بِخُطًا حذرة فى الحارة بطول الجدار . وقامت « ماريا باسكا » ودخلت الدار، ودخل الرجل وراءها وأوصد الباب .

لم ينس « باولو » قط ما اعتراه من اضطراب فظيع وهو فى بستان الفاكهة السلوك للنساء وفى مخيلته منظر هذا الرجل وهذه المرأة اللذين ضمهما ماخور الحارة ، انتابته كآبة مرضية وضيق جعلاه يرغب فى الاختلاء بنفسه والاختفاء عن الأنظار كحيوان مريض . وكان خلال الطعام صموتاً أكثر من المعتاد وسط الضيوف الآخرين الذين كانوا فى هدوء مرح . وما كادت الوجبة تنتهى حتى عاد إلى بستان الحديقة . . كانت المرأة هناك ، فى مكان انتظارها ، فى نفس الوضع الأول . ولم تكن الشمس قد وصلت إلى ركن الباب الرطب ،

وبدا كما لو كانت المرأة تحتفظ بجمالها وبياض بشرتها بفضل الظل الذى يحيط بها .

وحين رأت المرأة طالب معهد الكهنوت لم يبدُ عليها الاضطراب ، بل عادت تبتسم له ، ثم اتخذت هيئة جادة كما فعلت حين وصل الرجل البدين ، وسألته بصوت عالٍ كما لو كانت تتحدث إلى غلام :

ـ قل لى : أتقبل أن تأتى لتبارك بيتى يوم السبت ؟ فى العام الماضى رفض القس الذى كان يمر لمباركة البيوت أن يدخل بيتى . ليذهب إلى الجحيم هو وجُبَّتُه والذى بداخلها .

ولم يجب ، وهَمَّ بأن يرميها بحجر ، بل أخذ بالفعل حجرًا صغيرًا من الجدار الصغير ، ولكنه أعاده إلى مكانه ونظف يده بمنديله . ولم تفارقه عينا المرأة خلال هذا الأسبوع المقدس كله : وهو يستمع إلى القداس ، وهو حاضر فى المراسيم المقدسة ، وهو واقف فى استقبال الأسقف مع طلبة المعهد الآخرين ، وكانتا تسيطران على أفكاره . وَوَدَّ لو استطاع أن يطرد من هذه المرأة الشيطان الذى توهم أنه يتقمصها ، ولكنه أحس فى الوقت ذاته بأن روح الشر إنما تتملكه هو أيضًا . وعند حضوره مراسم غسيل الأرجل ، وبينما كان ينحنى أمام اثنى عشر شحاذًا بدوا حقيقة كأنهم اثنا عشر من الحواريين رق قلبه عطفًا حين فكر فى أن القس لم يُرِدْ فى يوم السبت المقدس من العام السابق ـ أن يبارك بيت المرأة الهالكة ، لقد غفر المسيح لمريم المجدلية ، ومن يدرى ، فلعل حال المرأة كان ينصلح لو أن القس بارك بيتها . وبدأت هذه الفكرة تراوده وتغرق كل ما سواها ، وهو حين يتفحصها الآن جيدًا بعد أن مرت على تلك الأيام سنوات يدرك أنها إنما كانت خدعة دبرتها غريزته ، فإنه لم يكن وقتها يعرف نفسه بعد ، ولكنه قال لنفسه : إنه

حتى إذا كان يعرف نفسه ما استطاع مقاومة إغراء الذهاب يوم السبت المقدس إلى حارة المرأة المالكة .

وحين وصل منعطف الحارة رأى أن « ماريا باسكا » لم تكن جالسة على عتبة بابها ، ولكن بابها الصغير كان مفتوحاً ، وكان معنى هذا أن أحدًا من الزوار لم يكن بالداخل . وبدون ارادة منه وجد نفسه يقلد الرجل البدين فى هذه اللحظة ويسير متسحباً ووجهه إلى الجدار . وشعر بخيبة أمل لأنها لم تكن هناك فى الانتظار ، ولم تقم فجأة حين رآته ، ولم تتخذ هيئة جادة وحزينة . وحين وصل إلى آخر الحارة لمحها ترفع المياه من البئر التى بجوار بيتها الصغير . وشعر بضربة فى قلبه : بدت له وكأنها فعلاً ماريا المجدلية . ومثل ماريا المجدلية أدارت عينيها وهى تحمل الدلو ، واحمر ً وجهها خجلاً . ووقر فى نفسه أنه لم ير فى حياته كلها امرأة فى مثل جمالها . وَهَمَّ بأن يُطلق لساقَيْهِ الريح ، ولكنها كانت قد خلبت لبه . ودخلت إلى بيتها وفى يدها دلو الماءَ ، وقالت له شيئاً لم يسمعه ، وكانت هى التى أغلقت الباب بمجرد أن دخل ، وصعد الدرج الخشبى الذى كان يؤدى عن طريق فتحة فى باب السقف إلى الغرفة العليا ، الغرفة التى فيها النافذة الصغيرة ذات الصليب الموضوع لطرد الغواية ، ووصلت قبله ، وانحنت على فتحة السقف وابتسمت له من فوق وهى تشده إلى أعلى بنظراتها . وحين كان فى الغرفة اقتربت منه وكأنها تريد أن تقيس نفسها به . وبحركة من يدها أطاحت بالقبعة من على رأسه ، ثم بدت كما لو كانت هى الرجل وهو المرأة وهى تفك أزرار ردائه ، وكانت تلمس الأزرار الحمراء بسعادة كسعادة الأطفال ، وكسعادته هو حين قطف ثمرة الراتنج من شجرة اللوز .

وعاد إليها مرة بعد ذلك ، ولكن لم يحدث له ـ بعد أن نال سر الكهنوت

ونطق بنذر العفة ـ أن مس امرأة ، بل أصاب حواسه ما يشبه الشلل . وحين كان يسمع عن قصص مخزية حدثت من قسس آخرين كان يشعر بالفخر لطهره ، وأصبح يذكر مغامرته مع المرأة التى تعيش فى الحارة كما يذكر المرء مرضًا شُفِى منه .

وبدا له ، فى السنوات الأولى التى قضاها فى البلدة الصغيرة ، أنه سبق له أن عاش حياته كلها ، وأنه عرف كل شىء : التعاسة ، والمهانة ، والحب ، واللذة والخطيئة ، والتكفير ، وأنه اعتزل العالم كناسك عجوز ، وأنه لم يعد ينتظر سوى شىء واحد ، هو ملكوت الله .

وها هى ذى الحياة الدنيا تبدو له فجأة من جديد فى عينى امرأة . ها هو ذا يرى أنه تنكب الطريق تماماً ؛ لأنه استبدلها بحياة الخلود .

أن يحب المرء وأن يكون محبوباً ، أليس هذا هو ملكوت الله على الأرض ؟ وملأت الذكرى صوره بالمشاعر . لماذا كل هذا يارب ؟ لماذا كل هذا العمى؟

أين ألتمس الضوء ؟ كان جاهلاً ، وكان يعرف أنه جاهل . كانت ثقافته تتكون من شذرات من كتب لم يكن يفهم روحها حق الفهم ، والكتاب المقدس على الأخص سَحَرَهُ برومانسية ما حواه من حقائق الأيام الأخرى ، كذلك فإنه لم يكن يثق حتى فى نفسه ، ولا فى بحوثه الداخلية ، كان يعرف أنه لا يعرفها ، وأنه ليس له من الأمر شىء ، وأنه مخطىء ، مخطىء دائمًا .

لقد جعلوه يتنكب الطريق . إنه رجل كآبائه الطحانين أو الرعاة ، وهو يتعذب لأنه لم يكن بوسعه أن يرخى العنان لغريزته . هاهو ذا يعود إلى أول تشخيص لمرضه ، التشخيص البسيط السليم : لقد كان يتعذب لأنه رجل ، لأنه بحاجة إلى امرأة ، إلى المتعة الحسية ، إلى إنجاب مخلوقات

أخرى . كان يتعذب لأن الهدف الطبيعى للحياة هو أن تعمل على استمرار الحياة ، وهم يُحرمون عليه ذلك تحريماً كان يزيد من قوة الحاجة لديه ، ولكنه تذكر بعد ذلك أن اللذة كانت تترك لديه بعد أن يذوق طعمها تقززًا وكَرْباً .

ماذا كان هو إذن ؟ لم يكن الجسد الذى يريد أن يعيش ، بل الروح التى تحس أنها حبيسة الجسد وتريد أن تتحرر من سجنها . فى لحظات نشوة الحب القصوى كانت الروح هى التى تفر بأجنحة سريعة ، ثم ما تلبث أن تسقط فى قفصها ، ولكن لحظة التحرر هذه كانت كافية ليلمح المكان الذى طارت إليه الروح فى نهاية سجنها حين ينهار حائط الجسد إلى الأبد مكان السعادة اللامحدودة : الأبد .

وأخيرًا ابتسم بحزن وإعياء . . أين قرأ كل هذه المعانى ؟ هو قرأها قطعاً فى مكان ما ، فهو لا يدَّعى أن تفكيره أتاه بجديد ، ولكن ما أهمية ذلك ؟ الحقيقة واحدة دائماً لا تتغير ، هى واحدة بين جميع البشر كما أن قلبهم واحد . لقد تصور أنه متميز عن غيره فى هذا الرأى الذى اختاره بمحض إرادته ، وأنه جدير بأن يكون قريباً من الله ، ومن الجائز أن الله يعاقبه على هذا التصور بإرساله بين البشر ، فى أُمَّة الأهواء والآلام .

وأحس بحاجة إلى القيام والسير . والواقع أن أحدًا كان يقرع الباب .

وانتفض واستيقظ فجأة من نومه ، وتَرَكَ الفراش مسرعاً شأن من هو على موعد يخشى أن يكون قد تأخر عنه . على أنه ما كاد ينهض حتى جلس ثانية خائر القوى . كان يشعر بأنه لا يتحكم فى أعضائه ، وبدا له كأنَّ أشخاصاً أوسعوه ضرباً بالعِصِىِّ فى منامه ، وانحنى – وذقنه على صدره – وحَرَّك رأسه حركة خفيفة ، حركة من يقول نعم ، نعم ، أجل . الأم لم تنس أن تناديه فى وقت مبكر كما أوصاها فى اليوم السابق . أجل ، أمه كانت تسير فى طريقها

المباشر . لم تذكر شيئاً مما حدث فى الليلة السابقة ، ونادته كما لو أن كل شىء كان مثلما كان عليه فى صبيحة الأيام الأخرى . مثلما كان عليه ، نعم . وقام من جديد ، وبدأ يرتدى ملابسه . وشيئًا فشيئاً تحامل على نفسه ونصب قامته وارتدى ثيابه الخشنة ، ثياب المحارب ، وفتح النافذة وهو يغمض جفنيه ويفتحهما فى الضوء القوى المنبعث من السماء الفضية . وكانت أشجار الجسر تهتز متألقة ينبعث من فوق أغصانها تغريد العصافير.

كانت الريح قد هدأت ، وكانت دقات جرس الكنيسة تتردد فى الفضاء النقى . هذه الدقات كانت تناديه ، ولم يكن هو يبصر شيئاً من الأشياء الخارجية ، بل كان يحاول أن يلوذ بأشيائه الداخلية ، وكانت رائحة غرفته تولد عنده حالة اضطراب حسى ، وكانت الذكريات تمسك بخناقه . دقات الجرس كانت تناديه ولكنه لم يقرر ترك غرفته ، بل ظل يدور فيها يشبه الغضب . واقترب من المرآة ثم ابتعد عنها على الفور . لا جدوى من الهرب، فقد كانت صورة المرأة بداخله كما كانت صورته هو تنعكس على صفحة المرآة ، ولو أنه استطاع أن يحطم نفسه إلى ألف قطعة لاحتفظت كل قطعة منهابصورة كاملة .

ودق جرس الكنيسة إيذاناً بالقداس مرة أخرى بإصرار ، وألح عليه فى الحضور ، وكان هو يتحرك هنا وهناك بحثاً عن شىء لا يجده . وأخيرًا جلس أمام المنضدة ، وبدأ يكتب ، بدأ ينسخ آيات « الباب الضيق » : «ادخلوا من الباب الضيق » إلخ ... ثم شطبها وكتب على ظهر الورقة : أرجوكِ ألاَّ تنتظرينى بعد الآن . لقد أوقع أحدنا الآخر فى شبكة من الأخطاء. لابد من تقطيع هذه الشبكة فورًا لكى نتحرر ، لكيلا نسقط إلى قاع الهاوية ... لن أراكِ بعد الآن : انسينى ولا تكتبى لى ، ولا تحاولى رؤيتى

أبدا . ونزل ونَادَى أُمَّهُ فى ممر المدخل ، ودفع إليها بالخطاب دون أن ينظر إليها قائلا :

ـ احملية إليها فورًا .

قال ذلك بصوت أجش وأضاف :

ـ سلميه إليها شخصيًا وعودى حالاً .

وشعر بالخطاب يُسْحَبُ من يده وحين دلفت إلى الخارج شعر بارتياح وقتى . ودق جرس الكنيسة للمرة الثالثة فوق البلدة الصامدة ، فوق الوديان التى لا تزال رمادية اللون ، مفضضة بلون الفجر . وتوافرت أعداد من الرجال المسنين وعصيهم مربوطة بمعاصمهم بأحزمة جلدية ، ومن نساء البلدة برءوسهن المربعة الكبيرة على أجسامهن الصغيرة ، صاعدات من الطريق الزراعى المائل وكأنهن صاعدات من أعماق الوادى .

وحين كان الجميع داخل الكنيسة وأخذ الرجال المسنون أماكنهم تحت حاجز المذبح ، انتشرت فى المكان رائحة وحشية ، إلاَّ أن « أنطيوكو » الصغير حرك المبخرة وأرسل البخور فى اتجاه الرجال لطرد رائحتهم الكريهة . وشيئًا فشيئًا فصلت سحابة البخور المذبح عن باقى الكنيسة ، وكان خادم القداس الأسمر فى قميصه الأبيض ، والقسيس الشاحب اللون فى ملابس القداس الموشاة المصنوعة من نسيج البروكار المقصب يتحركان وسط البخور وكأنهما فى غمامة لؤلؤية ، كانا يحبان هذا البخار وهذه الرائحة ، ويكثران من استخدامها . والتفت القس ناحية صحن الكنيسة وأغمض عينيه كأنما عجز عن الرؤية عبر هذا السحاب . وقطب جبينه ، وبدا أنه مستاء لقلة عدد المصلين ، وأنه كان ينتظر آخرين ، ووصل بالفعل بعض

المتأخرين ، كما وصلت الأم أيضاً فى النهاية . وشحب لون القس شحبت حتى شفتاه ، إذن وَصَلَ الخطابُ إلى صاحبته وتم الغداء وبَلَّ عَرَقُ الموتِ عارِضَيْهِ . وبارك القربان ، ثم قال فى داخله بصوت كالأنين : « إلهى ، أقدم لك جسدى ، وأقدم لك دمى ، وبدا أنه يرى المرأة والورقة فى يدها كأنها قربان تمت مباركته ، وأنها قرأتها ثم سقطت مصعوقة إلى الأرض .

ولما انتهى القداس ركع « باولو » وقد بلغ منه الإرهاق ، وتلا بصوت رتيب صلاة باللاتينية وأجاب المؤمنون . وشعر كأنه فى حلم ، وتولته رغبة شديدة فى خلع حذائه عند أسفل المذبح والنوم فى مكانه كما ينام الرعاة على الصخرة العارية . ورأى من خلال دخان المبخرة ـ خلف زجاج المشكاة ـ تمثال العذراء الصغير الذى كانت العامة تعتقد أنه يصنع المعجزات . تمثال أسود دقيق الصنع داخل ميدالية . ونظر إلى التمثال ، وخُيِّلَ إليه أنه فى تلك اللحظة فقط رآه من جديد ، بعد وقت طويل وغيبة طويلة ، أين كان طيلة هذا الوقت ؟ هو لا يذكر جيدًا . ذاكرته اختلط عليها الأمر . ثم هز نفسه فجأة ونهض واستدار وبدأ يخاطب جمهور المصلين ، الأمر الذى لم يكن جديدًا عليه ، وإن لم يكن كثير الحدوث . وتحدث باللغة الدارجة ، بصوت حاد ، وكأنه يؤنب الفلاحين المسنين الذين كانوا يمدون وجوههم ولحاهم بين قضبان الحاجز ليسمعوا بوضوح ، والنساء اللاتى افترشن الأرض موزعات بين الخوف والفضول . وكان خادم القداس الصغير ، والكتاب المقدس على ذراعه ، يتطلع إليه بعينين مستطيلتين داكنتين ثم ينظر إلى المصلين ويهز رأسه وكأنه يتوعدهم مداعباً . وقال القس :

ـ أجل ، عدوكم فى تناقص مستمر . إننى إذا التفتُّ كدت أخجل من النظر يبدو أننى رخٌّ فقد فراخه . يوم الأحد فقط تبدو الكنيسة أكثر امتلاء

بقليل ، ولكن يُخَيَّلُ إلىَّ أنكم تحضرون إليها تأدية لواجبٍ لا لأنكم مؤمنون ، أنتم تحضرون بحكم العادة لا لأنكم تشعرون بحاجة إلى الحضور ، كما تغيرون ملابسكم أو تخلدون إلى الراحة . اسمعوا إذَنْ ، لقد حان وقت الصحو . أجل ، حان لكم جميعاً وقت الصحو ، أنا لا أقول تعالوا للأمهات والرجال الذين عليهم أن يذهبوا إلى عملهم كل صباح ، قبل طلوع الشمس ، بل للنساء الشابات والمسنين والشباب الصغار ، كل أولئك الذين سأراهم حين أخرج من الكنيسة واقفين على عتبات أبوابهم يحيون طلوع الشمس ، كل أولئك يجب أن يحضروا إلى هنا ليبدءوا النهار مع الإله ، ليحيُّوا خالقَهم فى بيته ، وليستمدوا منه القوة والعون لقطع الشوط الباقى . إنْ فعلتُم هذا اختفت العادات السيئة ، وانتهى الشقاء الذى تعيشون فيه ، وابتعدت عنكم الفتنة والغواية . آن الأوان للاستيقاظ فى وقت باكر ، وللقيام وتغيير الملابس كل صباح لا يوم الأحد فحسب . أنا فى انتظاركم جميعًا ابتداء من الغد ، سنصلى معًا لكيلا يتخلى الرب عنا وعن بلدتنا الصغيرة ، هو الذى لا يتخلى عن أصغر عش لأصغر طائر ، أمَّا أولئك الذين أقعدهم المرض ولا يستطيعون الحضور فسندعو لهم بالشفاء من عللهم وأسقامهم وبمعاودة السير .

واستدار فجأة ، وفَعَلَ خادم القُدَّاس مثله . وساد الكنيسة الصغيرة برهة صمت عميق كان يسمع خلاله صوت آلة تكسير الحجارة من وراء الجسر . ثم نهضت امرأة ، واقتربت من أم القسيس ووضعت يدًا على كتفها وانحنت لتقول لها فى همس :

ـ أرجو أن يحضر ابنك على عجل ليتلقى اعتراف « الملك نيقوديمو » فهو فى حالة خطرة .

ورفعت الأم عينيها وخرجت من ألمها ، وتذكرت أن « الملك نيقوديمو » رجل عجوز غريب الأطوار ، يشتغل بالصيد ، ويعيش فى كوخ على الهضبة . وسألت المرأة عَمّا إذا كان على ابنها « باولو » أن يذهب إلى ذلك المكان ، ولكن المرأة قالت :

ـ لا . لقد حمله ذووه إلى البلدة .

وقامت الأم وذهبت لتنهى الخبر إلى ابنها « باولو » فى الغرفة الصغيرة التى كان يخلع فيها ملابس القداس بمساعدة « أنطيوكو » ، وسألته :

ـ هل ستحضر أولا إلى البيت لتناول القهوة ؟

وتحاشى ابنها أن ينظر إليها ، ولم يرد عليها ، وبدا كأنه مستغرق فى الاستعداد للذهاب إلى العجوز المريض على جناح السرعة . كانت الأم وابنها يفكران فى شىء واحد : فى الخطاب الذى سُلم إلى « آنييس » ، ولكن لا هى ولا هو طرقا هذا الموضوع . ثم ذهب هو على عجل فى حين بقيت هى فى مكانها كتمثال من الخشب . وقالت لخادم القداس الذى كان منشغلا بإعادة الملابس المقدسة إلى الصوان الأسود :

ـ كان الأحرى ألاَّ أقول له شيئاً إلاَّ بعد أن يأتى إلى البيت ويتناول القهوة .

غير أن « أنطيوكو » أخرج وجهه من ضلفة الصوان وقال برزانة :

ـ القسيس يجب أن يعتاد كل شىء .

وعاد لِمَا كان يفعله داخل الصوان ، وأضاف وكأنه يُحَدِّثُ نفسه :

ـ لعلَّه حَانِقٌ علىّ . قال : إننى كنت شارداً ، ولكن هذا غير صحيح ، أؤكد لَكِ أنه غير صحيح ، كل مافى الأمر أننى حين كنت أنظر إلى العجائز

غلبتنى الرغبة فى الضحك ؛ لأنهم لم يفهموا الوعظ ، كانوا يفتحون أفواههم، ولكنهم لم يكونوا يفقهون شيئًا . أراهن أن « ماركو بانيزا » العجوز يعتقد حقيقة أن عليه أن يغسل وجهه كل يوم ، هو الذى لا يغتسل إلا فى مناسبتين : عيد الفصح وعيد الميلاد: وسَتَرَيْنَ ، سَترين أن الجميع سيأتون إلى الكنيسة كل يوم من الآن فصاعدًا ؛ لأنه قال: إنهم إنْ فَعَلُوا فسيختفى الشقاء .

وبقيت هى فى مكانها ويداها تحت إزارها وقالت :

ـ المقصود هو شقاء الروح .

قالت ذلك لكى تثبت له أنها هى على الأقل قد فهمت . وبرغم ذلك فإن « أنطيوكو » نظر إليها نظرته إلى العجائز ، أى برغبة قوية فى الضحك ، فقد كان واثقاً من أن أحدًا لم يكن قادرا على فهم هذه الأشياء مثله . هو الذى استظهر الأناجيل الأربعة ، والذى يريد أن يكون قسيساً ، برغم شقاوته وفضوله ، شقاوة وفضول باقى الغلمان .

وما كاد « أنطيوكو » ينتهى من ترتيب الأدوات والملابس المقدسة بعد أن انصرفت أم القسيس حتى أغلق الغرفة الصغيرة ، وعبر حديقة الكنيسة التى ملأها نبات أكيل الجبل ، وحيدًا كأنه أحد ملائكة المقبرة . ولكن بدلا من أن يعود إلى البيت ، إلى أمه التى كانت تملك حانة هناك فى ركن الميدان ، جرى إلى الأبرشية ، ليتسقط أخبار « الملك نيقوديمو » وأيضاً لسبب آخر قال :

ـ ابْنُكِ أَتَّبَنِي لأننى شردتُ .

كررها بقلق، فى حين كانت أم القسيس مشغولة بإعداد الطعام لابنها «باولو » ، وقال :

ـ لعله لا يريدنى خادمًا الآن ، لعله يفضل « إيلاريو بانيزا» ، ولكن «إيلاريو» لايعرف حتى القراءة ، أما أنا فقد تعلمتُ القراءة حتى باللاتينية ، ثم إن «إيلاريو » قذر لا يعرف النظافة . مارأيك ؟ هل سيفصلنى ؟

وأجابت بصرامة :

ـ هو يريد أن تكون منتبهاً ، هذا كل مافى الأمر . ثم إنه لا يصح أن تضحك فى الكنيسة .

قال :

ـ كان عصبيًّا . لعله لم ينم هذه الليلة بسبب الريح . أَسَمِعْتِ شدة الريح ؟

ولم تجب . وذهبت إلى غرفة الطعام الصغيرة ووضعت على المائدة من الخبز والبسكويت ما يكفى للرسل الاثنى عشر . من المحتمل ألاَّ يقرب ابنها « باولو » شيئاً من الطعام ، ولكن التشاغل والإعداد لأجله كما لو كان سيعود خالى البال وجائعاً كأى راعٍ فى الجبل كانا يهدئان قليلاً من روعها ، وربما أيضاً من تأنيب ضميرها . غير أن هذا الضمير كان يتحرك كل حين بمزيد من التخوف والانزعاج . إن ملاحظة الصبى : « لعله لم ينم هذه الليلة ، ولهذا كان عصبيًّا » زادت من همها . وأخذت تذهب وتجىء ، وكان وقع خطواتها الثقيلة يتردد فى الغرفة الصغيرة الصامتة . كانت تشعر شعورًا غريزيًّا بأن كل شىء وإنْ كان قد انتهى فى الظاهر فإنه فى الحقيقة قد يبدأ من جديد . لقد سمعت جيدًا ما قاله فى المذبح من ضرورة الاستيقاظ المبكر والقيام والسير . نعم ، السير ، هى تذهب وتجىء ، وتصعد إلى فوق وتنزل إلى تحت ، وهى تتوهم أنها تسير خفيفة . ورتبت غرفته ، ولكن المرآة

والروائح ما برحت تثيرها وتشغل بالها بالرغم من اقتناعها بأن كل شيء قد انتهى .

وجه ابنها « باولو» الشاحب الجامد كوجه المومياء بدا لها خلف المرآة الملعونة معلقاً على الحائط مع رداء القسيس ، وممددًا بلا أنفاس على السرير. شيء ما كان يؤلم قلبها ، وكأن شيئاً فى أحشائها قد أصابه الشلل ، ومنعها من التنفس بحرية . وبينما كانت تغير غطاء الوسادة وترفع الغطاء الذى بلله ابنها « باولو» بعرق وساوسه سألت نفسها ، للمرة الأولى فى حياتها :

ـ ولكن لِمَ لا يُسْمَحُ للقُسس بالزواج ؟

وتذكرت أن «آنييس» امرأة ثرية ، وأن لها بيتاً كبيرًا وبساتين وأموالاً، وفجأة بدا لها التفكير فى مثل هذه الأمور إثماً عظيماً . ووضعت غطاء الوسادة ورجعت إلى الوراء ومرت بغرفتها بهدف السير . كانت تسير منذ الفجر وهى لا تزال فى مطلع الحياة ، والمرء يمضى ويمضى ثم يعود دائمًا إلى نقطة البداية . ونزلت إلى الطابق الأرضى ، وجلست أمام المدفأة إلى جوار «أنطيوكو » ، هو على الأقل لم يكن يتحرك . لقد قرر الانتظار طيلة النهار إذا اقتضى الأمر ؛ لكى يرى رئيسه من جديد ويسترضيه . كان جامدًا لا يتحرك، ورجلاه محنيتان ، ويداه مشبوكتان حول ركبتيه .

وقال بنبرة لوم خفيفة :

ـ كان الواجب أن تحضرى له القهوة فى الكنيسة كما كُنتِ تفعلين حين كان يتأخر ليتلقى اعتراف النساء ، أغلب النساء ، أغلب الظن أنه سيجوع .

قالت :

وهل كنت أعلم انهم سيطلبونه على عجل ؟ يبدو أن العجوز فى الرمق الأخير

قال:

ـ أنا لا أصدق هذا ، أبناء إخوته وأخواته هم الذين يستعجلون موته ؛ لأنه ذو ثروة . أنا أعرف هذا العجوز ، لقد رأيته مرة حين ذهبتُ مع أبى إلى الهضبة . كان جالساً على الأرض بين الحجارة وراء كلبٍ وصقر مُرَوَّض وكثير من الحيوانات الميتة . اللّه لا يأمر بهذا .

ـ بم يأمر إذن ؟

ـ الله يأمر بأن نعيش بين الناس، وأن نحرث الأرض، وَألاَّ نخفى المال ، وأن ننفقه على الفقراء .

كان هذا الصغير يتحدث كالرجال . ورق له قلب أم القسيس . إذا كان « أنطيوكو» يتحدث بهذه الحصافة وهذه البلاغة فالفضل فى ذلك إنما يرجع إلى ابنها «باولو » . ابنها «باولو» هو الذى يلقن الجميع الطِّيبَةوالحكمة والأناة، وتنهدت وهى تنحنى لتقرب إناء القهوة من النار ، وقالت لأنطيوكو:

ـ أنت تتحدث كقسيس صغير ، يا «أنطيوكو » . سنرى حين تكبر ما إذا كان سلوكك سيتفق وهذا الكلام ، وما إذا كُنْتَ ستتصدق بمالك على الفقراء .

ـ أجل ، أجل . سأتصدق على الفقراء بكل شىء . سيكون عندى مال كثير ، فأمى تكسب من الحانة ، وأبى يعمل حارسًا للغابة ، وهو أيضاً يكسب . كل مال أناله سأعطيه للفقراء . الله يريد هذا وهو الذى يرزقنا ،

وقد جاء فى الكتاب المقدس أن الطيور لا تزرع ولا تحصد وأن الله يقوتها مع ذلك ، وأن زنبقة الوادى أجمل لباسًا من الملك .

ـ أجل يا «أنطيوكو» ، حين يكون المرء وحيّدا ، أمَّا إذا كان يعول أولادًا ...

ـ لافرق . ثم إننى لن يكون لى أولاد . القسس لا ينبغى أن يكون لهم أولاد .

والتفتت لتنظر إليه . كانت تراه من الجنب ووراءه باب الحوش المفتوح . وبدا وجهه أسمَر ورائعاً وجامدًا كأنه تمثال من البرونز ، ورموشه الطويلة تُغطى حدقتيه الكبيرتين . لم تدر المرأة لِمَ جاشت عواطفها وأحست برغبة فى البكاء .

ـ أنتَ واثقٌ أنكَ تريد أن تكون قسيساً ؟

ـ أجل إنْ أرادَ الرب .

ـ القسس غير مسموح لهم بالزواج ، ماذا لو خطر لك أن تتزوج ؟

ـ أنا لا أريد أن أتزوج ؛ لأن الرب لايريد .

وقالت الأم بشى من الضجر :

ـ الرب ؟ البابا هو الذى لايريد .

ـ البابا يمثل الرب على الأرض .

ـ ولكن ، فى الزمن القديم كان لرجال الدين زوجات وأولاد . والبروتستانت أيضاً يتزوجون وينجبون .

وقال الصبى بحرارة :

ـ نحن لا ينبغى أن تكون لنا زوجات .

وأصرت المرأة :

ـ القسس القدامى . .

ـ القسس القدامى ، نعم . ولكنهم هم أنفسهم عقدوا اجتماعاً وتداولوا فيما بينهم وقرروا منع الزواج . وأولئك الذين لم يكونوا متزوجين ـ أى أصغرهم سنًّا ـ كانوا هم الذين مَانَعُوا فى الزواج . هذا ما يجب أن يكون .

وقالت الأم وكأنها تخاطب نفسها :

ـ أصغرهم سنًّا !

ثم أضافت بصوت خافت :

لأنهم لا يعرفون . قد يندمون فيما بعد ، كما أنهم يتنكبون الطريق ، وقد يتشككون فى كل شىء كما فعل القسيس القديم .

وانتابتها رعدة ، وأجالت حولها نظرة سريعة وكأنها تستوثق من أن الشبح غير موجود ، ثم ندمت لأنها تحدثت عنه ، لا ، هى لا تريد حتى أن تتذكره، وبالذات فيما يتعلق بهذا الموضوع . ألم ينته كل شىء ؟ أما «أنطيوكو» فقد عبر وجهه عن ازدراء شديد وقال :

ـ هو لم يكن قسيساً ، بل كان أخاً للشيطان جاء إلى الأرض ، وقد خلصنا منه الرب ، لا دَاعِيَ حتى لتذكره .

ورَسَمَ علامة الصليب ثم قال وقد استرد هدوء نفسه :

ـ ولماذا الندم ؟ هل خطر على بال ابنك أن يندم ؟

كان يؤلمها أن يتحدث هكذا ووَدَّتْ أن تقول شيئاً عن عذابها ، وأن

تحذره من المستقبل ، ولكنها شعرت فى الوقت ذاته بما يشبه الفرح لكلماته ، وبدا لها أن ضمير البراءة يتحدث إلى ضميرها ليوافقها ويشجعها . وقالت له بصوت خافت :

ـ إن ابنى «باولو» يقول : إنه راضٍ بمصيره .

ـ إنْ لم يَقُلْها هو فمن يقولها ؟ أَلَمْ يَقُلْ لَكِ أيضاً ينبغى أن يكون للقسيس زوجة ، وأن يذهب للاحتفال بالقداس وهو يحمل ابنه الباكى على ذراعه ؟ ياللجمال ! منظر ابنك وهو يحمل ابنه الرضيع على ذراعه فى حين يشده ابنه الآخر من جُبته . . ياله من شىء مضحك .

وابتسمت الأم ، ولاح لها فى رؤية سريعة منظرُ أطفالٍ صغار فى بهاء الزهور منتشرين فى البيت ، فخفق قلبها ، وضحك « أنطيوكو » ، ولكن كان فى ضحكته شىء من قسوة ، وأضاف :

ـ ثم إن زوجة القس ستكون مضحكة ، ومن ينظر إليها من خلف وهى تسير إلى جواره سيتصور أن أمامه امرأتين . . وهل تذهب المرأة للاعتراف أمام زوجها إذا لم يكن فى البلد قس آخر ؟

ـ والأم إذَنْ إلى مَنْ تتجه لتعترف ؟

ـ الأم شىء آخر . ثم مَنْ هى المرأة التى تصلح زوجة لابنك هنا ؟ ابنة أخ « الملك نيقوديمو» ؟

وضحك من جديد ؛ لأن ابنة أخ « الملك نيقوديمو » كانت أكثر بنات البلدة دمامة . كانت عرجاء بلهاء . ولكنه عاد إلى جديته حين قالت المرأة وكأنها دُفعت إلى الحديث بإرادة غير إرادتها :

ـ هناك امرأة تصلح لذلك . . « آنييس » .

وهمس « أنطيوكو » فى غيرة :

ـ هى قبيحة . . هى لا تعجبنى ، كما أنها لا تعجبه ، عندها بدأت الأم تطرى « آنييس» ولكن فى صوت خافت ، وكأنها كانت تخشى أن يسمعها أحَدٌ غير الفتى فى حين كان « أنطيوكو » ـ ويداه لا تزالان مشبوكتين حول ركبته ـ يهز رأسه أنْ لا ، لا . وكان يمط شفته السفلى التى كانت تلمع كأنها كرزة باستعلاء :

ـ لا ، لا . هى لاتعجبنى . أتريدين أن أقول لَكِ رأيى بصراحة ؟ هى قبيحة ومتعجرفة . ثم . .

وهنا سمع وَقْعَ خُطًا فى الممر ، فصمت كلاهما وانتظرا .

جلس « باولو » وضع قبعته على المقعد المجاور أمام المائدة المُعَدَّة . وبينما كانت أمه تصب له القهوة سألها بصوت هادىء :

ـ سَلَّمْتِهَا الخطاب ؟

قالت : نعم . . وأشارت صوب المطبخ خشية أن يسمع الفتى .

ـ من هناك ؟

ـ «أنطيوكو»

ونادَى :

ـ « أنطيوكو» !

وفى لمحة كان الفتى أمامه والقُبَّعة فى يده ، متخشباً فى انتظار التعليمات كجندى صغير .

ـ «أنطيوكو » ، اذهب إلى الكنيسة وأَعِدَّ العُدَّة لنذهب بعد قليل للعجوز لمسحه الأخير بالزيت .

ولم يسعف الكلام الفتى من الفرحة . إذن فهو لم يعد غاضباً ، وهو لايفكر فى فصله واستبدال غيره به .

ـ انتظر ، هل أكلت ؟ وقالت الأم :

ـ لم يُرِدْ تناول شىء .

وقال «باولو » آمِرًا :

ـ أعْطِهِ شيئاً يا أمى ، وسيأكل .

لم تكن هذه المرة الأولى التى يجلس «أنطيوكو » فيها على مائدة القسيس ، ولهذا أطاع الأمر بدون خجل . ولكن دقات قلبه أسرعت قليلا ، فقد أدرك أن شيئاً ما قد تغير فيما يتعلق به ، وأن القس يُحدثه بطريقة تختلف عمَّا تعوَّد عليه . لم يكن ليستطيع أن يقول لماذا ولا كيف ، ولكنه كان يحدثه بطريقة مختلفة . وكان هو يتطلع إلى القس ـ وكأنه يراه لأول مرة ـ بسعادة ، ولكن أيضاً بخضوع ، خضوع وسعادة ، وكثير من المشاعر الجديدة التى يمتزج فيها العرفان بالجميل والأمل والفخر ، كانت تلك المشاعر تعمر قلبه كعش به أفراخ من العصافير الوديعة المشقشقة التى توشك على الطيران . وقال القس :

ـ ثم فى الساعة الثانية عُدْ إلى هنا للدرس . لقد حان الوقت لتبدأ تَعَلُّم اللاتينية بصورة جدية . سأَطْلُب كِتَابَ أجرومية جديد ؛ لأن كتابى قديم يرجع إلى القرن الماضى .

وتوقف « أنطيوكو» عن الأكل واحمرَّ وجهه ، وعرض خدماته بحماس

بدون أن يسأل عن السبب . ونظر القس إليه وابتسم . على أنه حوّل وجهه فجأة صوب النافذة الصغيرة التى كانت شجيرات الجسر تهتز وراء إطارها المذهب ، وانصرف ذهنه إلى شىء آخر . وأحس «أنطيوكو» بأنه عاد وحيدًا من جديد ، وأنه هُجِر من جديد . وبحزن رفع فتات الطعام من المائدة ، وطوى الفوطة بعناية ، وحمل الأكواب إلى المطبخ ، وأراد أن يغسلها ، ولو فعل لأحسن غسيلها ، فقد كان معتادًا على تنظيف الأقداح فى حانة أمه ،

ولكن أم القس لم تأذن له بذلك ، وقالت له بصوت خفيض وهى تدفعه :

ـ هيا اذهب . اذهب إلى الكنيسة وأعدَّ ما قاله لك .

وخرج ، ولكنه جرى ـ قبل أن يذهب إلى الكنيسة ـ ليطلب من أمه أن تحسن تنظيف البيت ؛ لأن القس عازم على زيارتهم .

وكانت أم القس فى هذه الأثناء قد عادت إلى غرفة الطعام الصغيرة التى كان ابنها « باولو » لا يزال جالسًا إلى مائدتها وأمامه صحيفة .

كان من عادته وهو فى البيت أن يذهب إلى غرفته ، ولكن العودة إليها هذا الصباح كانت تخيفه، كان يقرأ الصحيفة ، ولكنه كان يفكر فى شىء آخر، فى الصائد العجوز الذى يعانى سكرات الموت ، والذى اعترف له بأنه فَرَّ من صحبة الناس لأنهم فى رأيه « الشر ذاته » ، وكان الناس يُلقبونه فى سخرية ـ كما كان اليهود يلقبون المسيح ـ بالمَلك . ولكن حتى اعتراف العجوز لم يكن يهم « باولو» . كان يفكر أكثر فى « أنطيوكو» وفى أبيه وأمه اللذين كان يريد أن يسألهما عَمَّا إذا كانا يدركان حقًّا خطورة ما يفعلان حين يتركان الفتى لأوهامه ولقراره الأرعن فى أن يكون قسيسًا ، ولكنه كان يشعر

فى النهاية أن هذا الموضوع بدوره لم يكن يهمه كثيرًا ، وأن الذى كان يهمه هو الفرار من أفكاره الحقيقية . وحين رأى أمه تعود حَنَى رأسه ، فقد كان يؤمن بأنها الإنسان الوحيد الذى يحدد هذه الأفكار . حَنَى رأسه ، ولكنه قال لنفسه : لا ، لا لا ، لم يكن يريد أن يوجه إليها

كان حَجَرُ القبر فى مكانه : آه يبدو كما لو كان يثقل كاهله ! ومع ذلك شد ما كان يحس ، وهو مدفون تحت هذا الحجر ، أنه على قيد الحياة .

كانت الأم ترتب الأوانى وتضع كل شىء فى مكانه فى الصوان الذى كانت تستخدمه كبوفيه . وكان يسمع شقشقة العصافير على الجسر وصوت آلة تكسير الحجارة . وبدا له أن العالم ينتهى هناك ، وأن آخر غرفة يقطنها أحياء هى تلك الغرفة البيضاء الصغيرة بأثاثها المسود وأرضيتها المصنوعة من طوب قديم . كان الضوء الأخضر المُذَهَّب المنبعث من النافذة الصغيرة العالية ينتشر عليه بما يشبه انعكاس الماء المترقرق ، ويعطى المكانَ هيئة سجن فى آخر حصن مهجور .

شرب قهوته كما كان يفعل فى الأيام الأخرى ، وأكل «بسكوته» كما كان يفعل فى الأيام الأخرى ، وهو الآن يقرأ أخبار العالم البعيد. أجل ، كل شىء لم يتغير عمّا كان عليه فى سائر الأيام . لكن الأم كانت تفضل أن تراه يصعد إلى غرفته وأن يغلقها على نفسه . ولأنه كان فى المطبخ سألها من جديد: لِمَنْ ، وكَيْفَ سَلَّمَتِ الخطابَ . وسار إلى آخر المطبخ . وفى يده فِنجَالٌ ، ثم عاد إلى المائدة والفنجالُ فى يده .

ـ الخطاب ، يا « باولو» سلمتُه لها شخصيًّا ، كانت قد نَهَضَتْ وخرجتْ إلى البستان .

وقال لها

ـ حَسَناً .

وظَلّ يقرأ فى الصحيفة ، ولكنها لم تستطع الانصراف ، ولا منع نفسها من التحدث . هناك شىء أقوى من إرادتها ـ بل من إرادته هو ـ كان يضطرها إلى الحديث . وابتلعت الريق المالح الذى كان يملأ فمها ، ونظرت إلى داخل الفنجال ، إلى المنظر اليابانى الذى اسودَّ من لون القهوة ، ثم استأنفت الحديث :

ـ كانت فى البستان لأنها تنهض مبكرة . ذهبتُ إليها رأساً وأعطيتها الخطاب . لم يرَنَا أحد . وقد أخَذَتِ الخطابَ ونظرتْ إليه ، ثم نظرت إلىَّ ولم تفتحه ، وسألتُهَا : « أمَا مِنْ رَدٍّ ؟ » . كنت على وشك الانصراف ، ولكنها قالت : « انتظرى » . وفَتحتِ الخطابَ وكأنها أرادت أن تقول لى : إنه ليس فى الأمر سر.

وغاض الدم من وجهها ، فأصبح لونه كلون الورقة . ثم قالت لى : اذهبى فى أمان الرب . وصاح دون أن يرفع عينيه :

ـ كَفَى ، كَفَى !

ورأت الأم رموشه ترف ، كما رأت وجهه يشحب كما شحب وجه «آنيينس» ، ثم رأته وقد صعد إليه الدم ، الدم الذى كان يصعد من قلبه ويغمره كله . هى أيضاً استردت شجاعتها . ومرت لحظات رهيبة لم تكن هناك مندوحة مع ذلك من مواجهتها والتغلب عليها . وفتحت فَاهَا لتقول شيئاً آخر ، أوعلى الأقل لتتمتم : «أرايت ما فعلت ؟ جَنَيْتَ عليها وعلى نَفْسِك » ولكنه رفع وجهه وألقى برأسه قليلا إلى الوراء ليطرد سورة الغضب التى سيطرت عليه ، وصَوَّبَ إليها عينين تقدحان الشرر وقال :



ـ قلتُ : كَفَى ! أسَمِعْتِ ؟ كفى . لاأريد أن أسمع بعد الآن شيئاً عن هذا الموضوع وإلاَّ فعلتُ ما كنتِ أنت تهددينني به مساء أمس ورحلت من هنا .

وقام بغتة ، ولكنه بدلا من الصعود إلى غرفته خرج من جديد . وذهبت الأم إلى المطبخ بالفنجال الذى كان يرتعش بين يديها ، ووضعته واستندت إلى باب الفرن وقد أُسقط فى يدها . بدا لها وكأنه خرج إلى غير رجعة ، وأنه حتى إذا رجع لن يكون الذى رجع هو ابنها . سيكون الذى رجع هو رجل تعس هَيْمَنَ عليه غرام خبيث ، رجل عيناه تقدحان الشرر ، كاللص المتربص حين ينظر إلى شخص جَرُؤَ على عبور طريقه .

كان فى الواقع يسير كشخص فَرَّ من بيته ، كى لا يعود إلى غرفته ، فقد كان يخيل إليه أن « آنييس » دخلتها فى خفية عن الأعين ، وأنها كانت تنتظر بوجه شاحب والخطاب فى يدها . فر من البيت ليفر من ذاته ، ولكن لواعِج الحب كانت تحمله بعيدًا ، أبعد مما كانت الريح تفعل فى الليلة السابقة .

وعبر المرج وهو لا يعرف لِمَ فعل ذلك . وبدا له أنه أتى ليصدم جدار بيتها وبستانها ، لكنه تراجع كما لو كانت الصدمة قد ارتدت إليه ، حتى وصل إلى الميدان الذى كان الرجال العجائز يجلسون على حاجزه الحجرى ، وكانت الفتيات والمتسولون ينحنون عليه . وتحدث إلى هؤلاء وهؤلاء دون أن يسمع أصواتهم . ثم نزل إلى شارع البلدة ، وظل ينزل حتى بلغ الطريق الزراعى فى الوادى دون أن يرى شيئاً من البلدة أو من الشارع أو من الوادى . الكون كله انقلب رأساً على عقب ، وانسكب فى داخله ، فى فوضى من الحجارة والركام والأنقاض ، وكان هو ينحنى فوقه لينظر ، كما ينظر الأطفال

إلى الجرف من وادى الصخور بطول الطريق الزراعى . ثم عاد صاعدًا إلى الكنيسة . كانت شوراع البلدة الصغيرة مقفرة ، ومن جدران الساحة كانت تظهر بعض أشجار الخوخ وقد نضجت ثمارها ، وفى السماء الصافية مَرَّ قطيع من الماعز صَنَعَتْهُ السُّحُبُ البيضاء . وكان يصدر من بعض البيوت صوت أنوالٍ تتحرك ، ومن دور أخرى كان يسمع بكاء طفل رضيع .

كان حارس الحقول ـ المكلف أيضاً الخدمةَ فى الحضر ، والذى كان يمثل السلطة الرسمية الوحيدة فى المكان ـ يرتدى زياً نصفه يشبه لبس الصيادين ، ونصفه الآخر يشبه زى رجال الإدارة ، بسروال أزرق عليه خطوط حمراء ، وسترة من القطيفة حَالَ لونها ، وكان يعبر الشوارع وفى يده عَصًا غليظة ، وزمام كلبه . وكان هذا الكلب ذا لونين : أسود وبنى ، وكانت عيناه تنضحان بالدم ، وكان فيه شىء من شكل الكلب وشىء من شكل الأسد ، وكان كل الفلاحين وأهل الحضر فى الوادى والرعاة فى الهضبة والصبية واللصوص يعرفون هذا الكلب ويتقون شره ، وكان الحارس يصحبه معه ليلاً ونهارًا ؛ لأنه كان يخشى بدوره أن يضعوا لكلبه السم . زمْجَر الكلب حين رأى القس ، ولكن صاحبه أشار إليه فَأَقعى هادئاً خافِضَ الرأس . وتوقف الحارس ورفع يده بالتحية العسكرية للقسيس ، ثم قال بلهجة رسمية :

ـ فى ساعة مبكرة من هذا الصباح ذهبت لأرى المريض . حرارته من الحمى أربعون ، ونبضه مائة وعشرون . هو ـ فى رأيى الضعيف ـ مصاب بالتهاب فى الكبد ، وقد طَلَبَتْ منى ابنة أخيه أن أعطيه عقار الكينين .

كان الحارس يحتفظ فى حوزته بالأدوية والعقاقير ، وكان يسمح لنفسه بزيارة المَرْضَى لسببين : كواجب من واجبات وظيفته أولاً ، ثم ليوهم نفسه

أنه يحل محل الطبيب الذى لم يكن يصعد إلى البلدة إلا مرتين فى الأسبوع . واستطرد الحارس :

ـ ولكننى قلت لها : مهلاً ياسيدتى ، يبدو ـ فى رأيى الضعيف ـ أنه محتاج إلى شربة لا إلى كينين . وتباكت المرأة ، ولكن بكاءها كان بغير دموع . ولتنزل علىّ صاعقة من السماء إذا كنتُ قد شَخَّصْتُ بغير علم . وكانت تريد أن أذهب ركضًا لأستدعى الطبيب ، فقلت لها : الطبيب سيحضر صباح الغد الأحد ، وإذا كان الأمر يهمك إلى هذا الحد فأرسِلى على حسابك رَجُلاً لاستدعائه . المريض يمكن أن يموت إذا عَلِمَ أنه يدفع أجر الطبيب ، بعد أن قَضَى عمره كله لا ينفق شيئاً ، هل أحسنت الكلام؟

وانتظر برزانة أن يوافقه القس ، غير أن القس كان ينظر إلى الكلب الذى أصبح طَيِّعاً مأمون الجانب نزولا على رغبة صاحبه ، وقال لنفسه :

ـ آه لو استطعنا أن نمسك بزمام أهوائنا كما يمسك هذا الحارس زمام كلبه .

وقال شارد الذهن :

ـ أجل ، أجل . من الممكن الانتظار حتى يعوده الطبيب صباح الغد . . لكن المريض فى حالة خطرة .

وقال الحارس فى إصرار ، وفى لهجة لا تخلو من بعض التعالى لاستخفاف القس بالأمر :

ـ إذا كان حقيقة فى خطر فليرسلوا رجلاً لاستدعاء الطبيب . المريض باستطاعته أن يدفع فهو ليس من المُعْدِمِين ، ولكن ابنة أخيه لم تُطع حتى أمرى . لم تُعْطِه الشربة التى وصفتها وأعددتها له بنفسى .

ـ يجب أولا أن نعطيه القربان المقدس .

ـ ما كنت أحسب أن من الممكن إعطاء القربان المقدس لمريض غير صائم .

وقال القسيس وقد عِيلَ صَبْرُهُ :

وهو كذلك .

ـ العجوز لم يكن يريد الشربة . كان يجز على أسنانه التى لا تزال كلها قوية ، وكان يوجه الضربات كما لو كان فى عنفوان الصحة . . ثم إن ابنة أخيه ما كان لها ـ وفقاً لرأيى الضعيف ـ أن تعطينى أوامر ـ أنا حارس الريف والحضر ـ كما لو كنت خادماً نكرة ، للذهاب واستدعاء الطبيب على وجه السرعة ، نحن هنا لسنا بإزاء جريح ولا حادث له صلة بالطب الشرعى ، فالحارس لديه أشياء أخرى كثيرة هو مكلف إياها . والآن عَلَيَّ أن أنزل حتى ضفة النهر، فقد وصل بلاغ بأن شخصاً مّا وضع ديناميتًا فى ماء النهر لجمع السمك . . إلى اللقاء .

وأدى التحية العسكرية من جديد وذهب . ولدى تحرُّكه المفاجىء تحرك الكلب ، مشتركاً معه حتى فى الاستعلاء المكبوح الذى بدا من صاحبه ، وهز ذيله بعنف دون أن يزمجر ، ولكنه أدار رأسه قليلا ناحية القس وهو ينظر إليه بعينيه الرهيبتين ، كعينى القاتل .

وصعد القس قليلا ، وإذا به يجد « أنطيوكو » متكئاً على الحاجز الحجرى فى الميدان تحت ظل مهتز لشجرة من أشجار الدردار . كان فى الانتظار ، بعد أن أعد كل شىء لمسح الرجل العجوز بالزيت . وحين رأى «أنطيوكو » القس جَرَى وسبقه إلى الغرفة الصغيرة وفى يده قميص الكاهن . وبعد قليل

كانا جاهِزَيْن : القس بالقميص والبطرشيل والقارورة الفضية التى تحوى الزيت المقدس ، و«أنطيوكو» وقد غطته إلى أخمص القدمين عباءة حمراء ، وبيده مظلة من قماش البروكار ذات حواف من ذَهَب ، ظل محتفظًا بها مفتوحة ، حرصاً منه على أن يظل رجل الدين والقارورة الفضية فى الظل ، فى حين بَدَا هو تحت الشمس وقد زاد وجهه احمرارًا بالمفارقة مع وجه القس الذى اختلط البياض فيه بالسواد .

واكتسى وجه « أنطيوكو » تعبيرًا وقورًا شبه تراجيدى . كان يُخيل إليه أنه هو حارس بيت القربان ، وأنه تلقى من الرب مهمة حماية القارورة المقدسة بما تحويه من زيت مقدس ، الأمر الذى لم يمنعه من الضحك ، ولو أنه حاول أن يكتمه بالعض على نَواجِذه ، وهويرى العجائز وهم ينزلون بسرعة من الحاجز الحجرى بحركات مضطربة لدى مرور القربان المقدس ، والصبية وهم يركعون ووجوههم إلى الحائط بدل أن تكون إلى القسيس . ونهض هؤلاء الصبية وساروا وراء القربان المقدس على هيئة موكب، وأخذ «أنطيوكو » يهز الجرس الصغير أمام كل بيت يخطر ساكنيه بمرور السيد المسيح . ونبحت الكلاب ، وتوقف صوت الأنوال ، وبرزت رءوس النساء الكبيرة من النوافذ الصغيرة ومن الشرفات الخشبية ، واهتزت البلدة كلها .

توقفت امرأة كانت تصعد من النبع وعلى رأسها جرة من الماء ، ووضعت الجرة على الأرض وركعت إلى جوارها ، وشحب وجه القسيس ؛ لأنه عرف فيها خادمة « آنييس» . . أجل ، هذا هو الماء الذى ستغسل به « آنييس » دموعها ، وبدا له أن الجرة الرطبة التى نَزَّتْ بالرشح كانت هى نفسها تبكى . شعر برعب بَلَغَ من شدته أن ضغطت يده بقوة على الآنية الفضية وكأنه يستند إليها .

وكان موكب الصِّبْيَة يتزايد عددًا كلما اقترب من بيت الرجل العجوز . . هاهو ذا البيت على حافة الطريق ، بين الطريق والوادى . بيت صغير عال من الحجارة المرصوصة ، بنافذة واحدة ليس لها زجاج ، وأمامه حوش صغير على شكل مصطبة يحيط به جدار . كان الباب مفتوحًا ، وكان القس يعرف أن المريض يرقد بملابسه على حصيرة فى الغرفة الأرضية ؛ لذلك دخل هو يصلى ، فى حين أغلق « أنطيوكو » المظلة ، وهز الجرس الصغير بقوة ، وَحَرَّكَهُ تجاه الصبية الواقفين ليفرقهم كالذباب . غير أن الغرفة الأرضية كانت خالية ، كما أن الحصيرة لم يكن عليها أحد . وخطر للقس أن المريض قد يكون قَبِلَ أنْ يَرْقُدَ على الفراش ، أو أن أهله نقلوه إليه بدون مشقة وهو فى حالة احتضاره تلك . ودفع باب غرفة أخرى داخلية ، ولكنها بدورها كانت خالية . وسار إلى باب البيت ، فرأى ابنة أخى الرجل العجوز نازلة من الطريق الزراعى وهى تعرج وتلهث ، وفى يدها زجاجة . كانت قد ذهبت إلى حيث حارس الحقل لكى يعطيها الدواء . وسألها القسيس وهى تدخل وترسم علامة الصليب :

ـ أين المريض ؟

وحين لم تر الفتاة عمها على الحصيرة فتحت عينيها عن آخرهما وأطلقت صرخة ذعر عالية . وفى الخارج قفز الأطفال الذين كانوا يرقبون ما يجرى من الحائط حتى الباب . واعترض « أنطيوكو » على غزوهم ، فجعلوا يدفعونه ويشدونه من عباءته ، ولكن ماكاد القسيس يظهر على البا ب ـ بعد أن تبع الفتاة العرجاء فى الغرف الداخلية ، والقارورة الفضية لم تبارح يده ـ حتى انسحب الجميع فى صمت . وأخذت ابنة أخى الرجل العجوز تجرى هنا وهناك وهى تصيح :

ـ ليس هنا . إلى أين ذهب ؟!

وظهر طفل صغير ، كان آخرَ من خرجوا من سياج الطريق الزراعى ، وتقدم ويداه فى جيبيه وسأل بهدوء :

تبحثون عن المَلِك ؟ لقد ذهب إلى أسفل .

ـ أسفل !! أين ؟

ـ أسفل .

كررها الطفل وهو يشير بأنفه تجاه الوادى . وأسرعت ابنة الأخ تنزل فى الطريق الزراعى والصِّبْيَةُ خلفها . وأشار القس لأنطيوكو بأن يفتح المظلة ، وعاد الاثنان أدراجهما على مَهَلٍ وفى وقار وصمت ، فى حين كان الناس يخرجون إلى الشارع ، وكان خبر هروب الرجل العجوز ينتقل من فم إلى فم .

كان « باولو » من جديد أمام المائدة فى قاعة الطعام الهادئة ، والأم تقوم على خدمته . . وَتَحَدَّثاَ عن هرب « المللك نيقوديمو » ووضع « أنطيوكو » القارورة والحبربة والعباءة ، ثم جرى من جديد إلى أسفل ليستعلم ، وعاد بأخبار غريبة : لقد اختفى الرجل العجوز ! وهناك من يقول : إن الذين حملوه هم أقاربُ كانوا يريدون الاستيلاء على كَنْزِه . وقال آخرون على سبيل المزاح : إن كلبه وصقره نزلا إلى البيت وحملاه . وقال هو : إنه لايصدق حكاية الكلب . أما حكاية الصقر فلم يكن يرى ما يدعو بشأنها إلى الضحك ، فهو يذكر حين كان طفلا صغيرًا أن صقرًا حَمَل من حوشهم خروفًا ثقيلاً .

ولكن « أنطيوكو » عاد مرة أخرى بخبر مؤداه أن بعضهم لحق بالمريض فى الشارع وهو يعود إلى الهضبة ليموت فيها . كانت حُمَّى الاحتضار تدفعه ،

وكان يسير كمن يمشون أثناء النوم . ولم يُرِد أقاربه إغضابَهُ أو إيذاءه ، فصحبوه إلى كوخه .

وقال القسيس للفتى :

ـ اِجلسْ هنا وكُلْ .

وجلس « أنطيوكو » إلى المائدة بعد أن التفت إلى أُم القس ليرى تعبير وجهها ، وابتسمت أم القسيس له ، وأشارت له بأن يطيع ، وشعر هو بأنه أصبح بمثابة عضو فى الأسرة ، ولم يدرك فى سذاجة أن هذين الاثنين ـ وقد انتهيا من الحديث عن هرب الرجل العجوز ـ كانا يخافان البقاء بمقرهما . كانت الأم ترى عينى ابنها المتحركتين القلقتين تغمضان بين الحين والحين وتفقدان شفافيتها ، وتصبحان صلبتين كأنها قُدَّتَا من حجر ، وقد غشاهما ظلام من الليل الداخلى ، وهو بدوره كان يهز نفسه وهو يدرك أن أمه تراقبه وتحس بعذابه .

بعد أن انتهت الأم من تقديم الطعام لم تدخل الغرفة . ومع الظهيرة الهادئة عادت الريح ، ولكن كنسيم خفيف لطيف يهب من الغرب ، وتهتز له بالكاد أشجار الجسر هزات عذبة مضيئة . وانتشت الغرفة بأكملها من انعكاس أوراق الشجر الجذلة المتحركة ، ومن ضوء السماء العالية على النافذة الصغيرة التى كانت تعبرها خطوط مفضضة من السحب الصغيرة الرقيقة كانت النسمة تبدو وكأنها تعزف عليها موسيقاها الوانية .

وفجأة طرق الباب طارق وتبدد السحر . وجرى « أنطيوكو » ليفتح ، وإذا بالباب أرملة شابة شاحبة الوجه ، تنطق عيناها الكبيرتان السوداوان بالفزع . وطلبت هذه المرأة أن تقابل القس ، وكان إلى جوارها صَبِيَّةٌ تمسكها

بقوة من يدها وتشدها إلى الخلف وهى تتلوى ، وشعرها الفاحم محلول تحت منديلها الأحمر ، وعيناها الخضراوان تلتمعان فى وجهها الشاحب كعينى قط وحشى . قالت الأرملة :

ـ إنها مريضة . أريد أن أرى القسيس لكى يقرأ الأناجيل ويطرد روح الشر التى فى هذه الصغيرة . وانتاب «أنطيوكو » وَجَلٌ وخوف من هذه الزيارة ، كان الباب مفتوحًا نصف فتحة ، والساعة لم تكن تسمح بإزعاج القس بمثل هذه الأمور . كذلك فإن الطفلة التى كانت لا تفتأ تتلوى بكل أطرافها التى كانت مائلة إلى جنب، والتى حاولت أن تعض يد أمها لأنها لم تتمكن من الفرار ، كان يبدو عليها الألم والذعر . وقالت الأم ووجهها يحمر خجلا :

ـ لقد ألمَّ بها الشيطان .

ودعا « أنطيوكو » الأرملة للدخول بدون أن ينبس ببنت شفة ، وساعدها على دفع الطفلة التى تشبثت بإطار الباب إلى الداخل ، واستمع القس إلى القصة ببنت شفة ، وعلم أن هذا هو اليوم الثالث الذى كانت الطفلة المريضة تتلوى فيه بهذه الصورة فى محاولة مستمرة للفرار ، وأن كل المحاولات التى بُذلت لطرد الروح الشريرة منها باءت بالفشل . وقرب القس الصغيرة إليه ، وأخذها من كتفيها وفحص عينيها وفمها وسأل :

ـ هل ظلت طويلا تحت الشمس ؟

قالت أم الصبية بصوت خافت :

ـ ليس الأمر كذلك . أعتقد أن روح الشر تقمصتها .

ثم أضافت :

ـ لا ، ابنتي لم تعد وحدها .

وقام القس ليذهب إلى غرفته وبحضر الأناجيل ، ولكنه تراجع وأرسل «أنطيوكو » ليحضرها . وعاد « أنطيوكو » بالكتاب المقدس ، فوضعه القس على المائدة وفتحه ، وتلا وهو يضع يده على رأس الطفلة الساخن ، وركعت الأرملة وأمسكت ابنتها بقوة :

« ووصلوا إلى ناحية الجراسيين ، مقابل شاطىء الجليل . ولما نزل يسوع إلى البر استقبله رجل من المدينة فيه شياطين ، وكان لا يلبس ثياباً من زمن طويل ، ولا يسكن فى بيت ، بل بين القبور . فلما رأى يسوع ، صرخ وارتمى على قدميه وصاح بأعلى صوته : مالى ولك ، يايسوع ابن الله العلى ؟ أطلب إليك ألا تعذبنى » .

وقلب « أنطيوكو صفحة الكتاب ونظر إلى يد القس الموضوعة على المائدة ، ولما وصل القس إلى عبارة « مالى ولك » رأى « أنطيوكو » اليد ترتعش ارتعاشة خفيفة ، ورفع عينيه بسرعة ، ورأى عينى القس وقد امتلأتا بالدموع ، عندئذ جاشت عواطفه فركع إلى جانب الأرملة ، وبدون أن يتوقف عن لمس الكتاب ، وقال لنفسه :

« أطيب رجل فى العالم هو هذا . إنه يبكى لأنه يقرأ كلمات الرب » ولم تُواتِه الجرأة على رفع عينيه من جديد لكى يراه ، ولكنه جذب بيده الطليقة إزار الطفلة بشيء من التوجس ، وكذلك بخوف خفى من أن تدخل الشياطين حين تخرج من جسدها فى جسمه هو . ولم تتحرك الطفلة التى تملكتها روح الشر بعدها ، بل تخشنت ، بدت وكأنها تستطيل بعنقها الأسمر الممتد ، وذقنها البارز فوق عقدة المنديل ، وعينيها اللتين شخصتا إلى وجه القسيس ، وقليلاً قليلاً انفتح فمها ، وبدت وكأنَّ كلمات الإنجيل

وهمس الريح وحفيف أشجار الجسر قد أدخلت إلى قلبها البهجة . وفجأة ـ كنتيجة لِجَذْبَة أشد من يد « أنطيوكو» انحنت هى أيضاً وركعت على ركبتيها ، وظلت يد القسيس التى كان يضعها على رأس الطفلة معلقة فى الهواء . واهتزت نبرات صوته وهو يتلو :

«أما الرجل الذى خرج منه الشياطين ، فالتمس من يسوع أن يأخذه معه، ولكن يسوع صرفه ، قال : ارجع إلى بيتك وأخبر بما عمل الله لك » .

ثم صمت وسحب يده . وأدارت الصبية ـ وقد هدأت تماماً ـ وجهها قليلاً لتنظر إلى «أنطيوكو » ، وكان حفيف الأشجار يُسْمَعُ بوضوح ، كما كان يُسمع من بعيد صوت آلة تكسير الحجارة .

كان «باولو » يعانى الأمرين . هو لم يكن يعتقد لمدى لحظة فى صحة ما قالته الأرملة من أن الصبية تقمصها الشيطان ؛ ولذلك بدا له أنه قرأ الإنجيل بدون إيمان ، شيطانه الداخلى هو الوحيد الذى كان حاضرًا ، وهذا الشيطان لم يذهب ، نَعَم لم يذهب ، ومع ذلك شعر « باولو » فجأة بأنه اقترب أكثر من ربه . «مالى ولك » . وبدا له أن هؤلاء المؤمنين الثلاثة ، وأمه ذاتها ، التى كانت راكعة خلف باب المطبخ ، كانوا ينحنون ، لا أمام قوته ، بل أمام شقائه . وعندما انحنت الأرملة لتقبل قدمه سارع بسحبها ، فقد فكر فى أمه التى كانت تعلم كل شىء ، وخشى أن تسىء به الظن . وكانت فى حركات الأرملة وهى تقوم درجة من المسكنة جعلت الطفلين ينفجران فى الضحك . وأحس هو أيضاً عندها بأن ألمه يذوب ، فقال لهم :

ـ حسناً ، انهضوا فقد انتهى الأمر .

ونهض الجميع ، وجرى « أنطيوكو » لفتح الباب ، فقد كان هناك شخص يقرعه من جديد .

كان الطارق هو حارس الريف، وقد حَضَر مع كلبه فى زمامه . وبادره «أنطيوكو » ـ ووجهه يأتلق من السعادة قائلاً :

ـ حدثت الآن معجزة . القس طرد الشياطين من جسم « نينا مازيا » .

ولكن الحارس لم يكن ممن يؤمنون بالمعجزات . وتنحى قليلا عن الباب ثم قال :

ـ إذن اترك لى مهمة إخراجها من هنا .

ـ ستحلُّ فى جسم كلبك .

ـ لن تستطيع ذلك ، فهى موجودة فيه بالفعل .

كان يمزح ، ولكن دون أن يفقد شيئاً من جهامته . وعند باب غرفة الطعام أدى التحية العسكرية واتجه إلى القسيس دون أن يلتفت إلى النساء ، وقال :

ـ أريد أن أحدثك على انفراد .

وانسحبت النسوة إلى المطبخ ، وذهب « أنطيوكو » ليعيد الكتاب المقدس إلى مكانه . وحين عاد ـ وبالرغم من أنه كان لا يزال تحت تأثير انفعالات المعجزة ـ توقف ليستمع إلى ما كان يقوله الحارس :

ـ أرجو عدم المؤاخذة لأنى أحضرت هذا الكلب معى . إنه نظيف ، ولن يسبب إزعاجاً فهو يفهم أين هو .

والواقع أن الكلب كان ساكناً لا يتحرك ، مغمضاً عينيه ، وذيله بين رجليه وأضاف الحارس :

ـ الأمر يتعلق بنيقود يموبانيا المقلب بالملك نيقود يمو . لقد ذهبوا إليه فى

كوخه ، وأعرب لهم عن رغبته فى أن يراك ويتلقى منك زيت المسح الأخير . وفى رأيى الضعيف . .

وهتف القسيس فى ضيق

ـ أيها الرب المقدس !

ومع ذلك أحس بسعادة كسعادة الأطفال لفكرة أنه سيذهب إلى الهضبة ، وأن ذلك سيسمح له بإهانة عذابه النفسى إنْ خيرًا وإن شرًّا ، وأضاف على الفور :

ـ أجل ، أجل . لابد من البحث عن فرس . كيف حال الطريق ؟

ـ الفرس والطريق أنا أتولى أمرهما . هذا واجبى .

وقدم القس للحارس شراباً . وكان الحارس لايقبل أبدًا ـ كمبدأ ـ شيئاً من أحد ولا حتى قدحًا من النبيذ . ولكنه شعر فى هذه اللحظة أن واجبه المدنى يختلط بواجب القس الدينى بدرجة ألزمته بقبول الدعوة . وشرب النبيذ وسكب قطرات منه على الأرض ، فإن الأرض تطلب حصتها من كل شىء يتناوله المرء ، وشكر القسيس بتأدية التحية العسكرية . وعندئذ رأى « باولو » الكلب يهز ذيله ويرفع عينيه وينظر إليه بتعبير من المودة الخالصة .

وأسرع « أنطيوكو » يفتح الباب ، ثم تقدم هو الآخر إلى غرفة الطعام فى انتظار التعليمات . وساءه أن أمه هناك فى مؤخرة الحانة التى أعادت تنظيفها للمناسبة ، وأعدت آنيتها للدعوة ، تنتظر زيارة القس هذا اليوم بلا طائل . ولكن الواجب واجب قبل كل شىء . وسأل « أنطيوكو » وهو يقلد لهجة الحارس الرسمية :

ـ أيقتضى الأمر أن تحمل المظلة أيضًا ؟

ـ أترى ذلك ؟ سآخذ فرساً للذهاب . الأمر لا يقتضى حضورك . ومع ذلك أستطيع أن أردفك خلفى على الفرس .

ـ سأذهب على قدمى . أنا لا أشعر أبدًا بتعب .

وبالفعل ، كان جاهزًا بعدها بدقائق ، بحقيبة صغيرة فى يده وعباءته الحمراء مطوية على ذراعه . ولو كان الأمر أمره لأخذ المظلة أيضًا ، ولكن لابد من إطاعة الأوامر العليا .

وبينما كان « أنطيوكو » ينتظر القس أمام الكنيسة أحاط به كل الصبية فى ملابسهم الرثة ، الذين كانت الساحة ميدان قتالهم المعتاد ، فى فضول ، دون أن يجرءُوا على الاقتراب منه كثيرًا . وكانوا ينظرون إلى الحقيبة الصغيرة بتوقير لايخلو من رعب وقال أحدهم :

ـ سنتبعكم .

ـ كونوا على مسافة ألف متر وإلا هاجمكم كلب الحارس .

ـ كلب الحارس ؟ أنت ستكون على ألف متر من كلب الحارس .

وقال بابتسامة زهو :

ـ أنا ؟

ـ أنت تتصور أنك الرب ذاته لأنك تحمل الرب الحقيقى فى يدك وقال صبى جرىء :

ـ لو كنتُ مكانك لهربت بالحقيبة وصنعت سحرًا كثيرًا بالزيت المقدس .

ـ رُحْ ، ياذبابة الخيل ! الشيطان الذى خرج من جسم « نينامازيا » حل جسمك .

ـ ماذا ؟ الشيطان ؟

وقال «أنطيوكو » فى وقار ؟

ـ أجل ، لقد أخرج هو الشيطان من جسم «نينامازيا » بعد ظهر اليوم ، هاهى ذى آتية .

كانت الأرملة تمسك الطفلة فى يدها وهى خارجة من دار الأبرشية ، واندفع الأطفال فى اتجاهها . وفى لحظةٍ ذَاعَ فى البلدة نبأ المعجزة ، ورأى الناس منظرًا ذكَّرهم بما حدث لدى وصول القس : جمع حاشد فى الميدان ، و « نينامازيا » فى أعلى الدرج المؤدى إلى باب الكنيسة . فى المكان الذى وضعتها فيه أمها ، وهناك بدت الطفلة السمراء النحيفة ، بعينيها الخضراوين ، ومنديلها الأحمر ـ بدت مدى لحظة معبودة لكل هؤلاء المؤمنين البسطاء . كانت النساء يَبْكِيَن ويُردن مَسَّها بأيديهن .

وكان الحارس قد حضر فى هذه الأثناء مع كلبه . وعبر القسيس الميدان على صهوة الفرس . وسار الحشد فى موكب وهم يتمتمون . وأشار إليهم القس بعض إشارات بيده وهو يستدير هنا وهناك ليشكرهم ، ولكنه كان يحس بشىء من الضيق لما حدث أكثر مما كان يحسه من ألم . ثم هَمَزَ الحصان وابتعد على عجل . ثمة غريزة يائسة جعلته يريد السباق والهرب إلى أسفل ، إلى الوادى ، وأن يقذف بكل كيانه فى الفضاء الموحش الذى كان ينفتح لعينيه .

وهبت الريح بأقوى مما كانت ، وفى ساعة العصر المضيئة كانت كل الأدغال تهتز وتلمع . وكان النهر يعكس زرقة السماء ، وكانت مروحة الطاحونة تبدو وكأنها تهرس لآلىء . وهبط الحارس مع كلبه و« أنطيوكو »

حاملاً الحقيبة الصغيرة وعليهما سيما الجد والشعور بالواجب . هو أيضاً استأنف المسيرة بهدوء أكبر . إن الطريق يتحول بعد النهر إلى طريق زراعى ، ويصعد فى الهضبة بين الحجارة والجدران الصغيرة والأشجار الملتوية والعوسج . وكانت الريح تضفى على الجو عذوبة ساخنة ، وتحمل عطورًا عبقة وكأنها تنتزع زهور الصعتر والورود الوحشية وتنشرها فى كل مكان .

كان الطريق دائم الصعود ، وحين اختفت البلدة عند منحنى الطريق الزراعى أصبح كل شىء ريحاً وحجارة ودخاناً ، وامتزجت الأرض عند الأفق بالسماء . وكان الكلب ينبح من آنٍ لآخر ، وبدا وكأنَّ كلاباً وحشية أخرى كانت ترد عليه ، ولكنه لم يكن سوى صدى النباح .

وفى منتصف الطريق اقترح القس على « أنطيوكو » أن يصعد وراءه على صهوة الفرس ، لكن الفتى رفض وتنازل فقط عن حمل الحقيبة الصغيرة .

وفى هذه اللحظة فقط سمح الفتى لنفسه بتبادل الحديث مع الحارس ، ولكنها كانت محاولة فاشلةعلى أى حال ؛ لأن الحارس لم يكف فى أى لحظة عن تصور أنه يملك سُلطات عليا . وكان يقف بين الحين والحين ويقطب حاجبيه ويضع حافة القُبَّعَة على عينيه ، ويجيل الطرف هنا وهناك ، وكأن كل الأراضى المحيطة أراضيه ، وكأن خطرًا يتهددها . وكان الكلب حين يراه هكذا يقف على أربع ويتشمم الهواء برعدة يهتز لها ذيله وأذناه .

ولكن كل شىء كان هادئاً ـ لحسن الحظ ـ فى تلك العصرية العاصفة . ولم يكن يبدو فى صحراء الحجارة والأجم هذه ، على قمم الجبل ، سوى معزات عجفاء سوداء ، على خلفية من السحاب الأحمر . ثم ظهر منحدر مغطى بكتل من الجرانيت ، شلال حقيقى من الحجارة المتكتلة بعضها فوق

بعض بخفة تحير الألباب . وعرف « أنطيوكو » المكان ، فقد سبق له أن جاء إليه ذات مرة مع أبيه . وبينما كان القس يدور دورة طويلة ـ لكيلا يترك الطريق الزراعى ، وكان الحارس يتبعه وفاءً لما تعهد به ـ كان « أنطيوكو » يتسلق الصخور واحدة بعد الأخرى ، وكان أول من وصل إلى كوخ العجوز.

كان كوخاً صغيراً بُنِىَ من أغصان الشجر ، تحيط به حظيرة من الحجارة جمع فيها هذا العجوز الذى استحب العزلة حجارة أخرى يستكمل بها هذا المسكن الذى يشبه حصون ماقبل التاريخ . وكانت الشمس تسطع بداخله وكأنها تسطع فى بئر ، وكان الأفق محجوباً من ثلاث جهات ، ولم يكن يلوح إلا ناحية اليمين بين كل حجرة وأخرى بعد أزرق وخط فضى فى الخلفية هو البحر . وظهرت من فتحة الكوخ رأس ابن أخى العجوز ، رأس سوداء مجعدة الشعر . وقال أنطيوكو « معلناً » :

ـ سيحضران .

ـ من ؟

ـ القس والحارس .

وقفز الرجل إلى الخارج فى خفة كخفة عنزاته ، وقد علاه شعر مثل شعرها ، وهو يلعن الحارس الذى يتدخل دائماً فيما لا يعنيه ، وقال بتهديد :

ـ سأحطم له أضلاعه .

ولكن حين رأى الكلب تنحى جانباً ، فى حين كان كلب الرجل العجوز يلتقى بكلب الحارس ويتشمم أحدهما الآخر على سبيل التحية .

واسترد« أنطيوكو » الحقيبة الصغيرة وجلس على حَجَرٍ أمام فتحة الحظيرة الزرقاء . ومن هذا الموقع كان يرى عددًا لا يحصى من جلود الخنازير البرية

المخططة باللونين : الرمادى والأسود ، وجلود حيوان المرموط المنقطة بلون ذهبى ، وهى مفروشة على الصخر لتجف . وفى داخل الكوخ كان جسد العجوز المسود مُسَجًّى على جلود أخرى ، وكان وجهه الداكن محاطًا بلحية بيضاء وشعر أبيض ، وقد بدا عليه جلال الموت .

وانحنى القس ليسأل الرجل المحتضر ، ولكن لم يجبه . كانت عيناه مُغمضتين ، وشفتاه مُطبقتين ، وقد انبعثت فى طرف فمه قطرة من الدم . وعلى مسافة من مكانه كان الحارس يجلس هو الآخر على حَجَرٍ وكلبه متمدد عند قدميه ، وكان يصوب بصره إلى داخل الكوخ بامتعاض ؛ لأن الرجل المحتضر كان يخالف القانون بعدم إبداء رغباته الأخيرة . وأدار «أنطيوكو» عينيه الماكرتين فى المكان وهو يظن بخبث أن الحارس لو استطاع لَحَرَّشَ الكلب على العجوز كما يحرشه على لص .

وانحنى القس أكثر داخل الكوخ وهو يضغط راحتيه المضمومتين بين ركبتيه، وكانت جبهته العريضة تبدو لمن ينظر إليه من الجَنْب وكأنها ثِقْل على وجهه المكدود ، وكانت شفتاه ممطوطتين من الاشمئزاز . هو أيضاً كان يلزم الصمت الآن ، وبدا وكأنه نسى السبب من مجيئه إلى هذا المكان ، وقنع بالاستماع إلى حفيف الريح بين الشجيرات الذى بدا أشبه باصطفاق أمواج البحر البعيد . وفجأة قفز كلب الحارس وهو ينبح ، وشعر « أنطيوكو » فوق رأسه بخفق أجنحة ، والتفت فرأى صقر الصائد العجوز المروض رابضاً على الصخرة ، ومنقاره القوى يشبه القرن الصغير ، وريش جناحيه الأسود ينفتح وينقبض ببطء .

وقال « باولو » فى الداخل لنفسه :

ـ هكذا يموت الإنسان . هذا الرجل هرب من الناس لأنه كان يخشى إنْ

بَقِيَ فى صحبتهم أن يكثر من القتل وارتكاب الآثام . هاهو ذا الآن ، لافرق بينه وبين حجر من هذه الحجارة . هكذا سيكون مصيرى بعد ثلاثين أو أربعين سنة ، بعد منفاى الأزلى ، ومن يدرى ؟ لعله يكون فى انتظارى هذا المساء !

واهتز الجسد المسجى . إذن لم يكن قد مات كما تصور . الحياة كانت تنبض بداخله وتصمد بقوة وشدة ، كالنسر بين الصخور . وقال القس لنفسه : « قد يحتاج الأمر إلى قضاء الليلة هنا ، وإذا قضيت هذه الليلة بدون أن ألقاها فقد نجوت . تجلد ، يا « باولو » وتشجع . وخرج وجلس غارقاً فى أفكاره إلى جوار « أنطيوكو » . كان الشفق يصبغ الأفق باللون الأرجوانى ، وفى الحظيرة كانت تستطيل ظلال الصخور ومجموعات الأشجار التى كانت تحركها الريح ، وبدا له أن أشعة الشمس هى التى كانت تهتز . ولم يكن يعرف فى قرارة نفسه أى رغباته كانت الأقوى . وقال :

ـ العجوز لم يعد ينطق . إنه فى الرمق الأخير . سنعطيه الآن زيت المسح الأخير ، وإذا لفظ الروح فسيتعين نقل جثته .

وأضاف وكأنه يحدث نفسه :

ـ سيقتضى الأمر . .

ولكنه لم يجرؤ على إنهاء الجملة بقول : « قضاء الليلة هنا » ونهض «أنطيوكو » وأعد العدة لتقديم زيت المسح الأخير ، وفتح الحقيبة الصغيرة ، ووجد لذة فى فك مشبكها المفضض ، وأخرج الغطاء والقارورة وفرو العباءة وألقاها على منكبه ، وبدا كأنه هو القس . وحين كان كل شىء جاهزاً

دخلوا الكوخ . وكان ابن أخى الرجل العجوز يسند رأس الرجل المحتضر ، وركع « أنطيوكو » من الجهة الأخرى وثنايا عباءته منتشرة على الأرض ، ووضع الغطاء على الحجر المستخدم كمقعد . وانعكس لون العباءة الأحمر على الإناء الفضى ، وركع الحارس أيضاً فى الخارج ، وكلبه إلى جواره .

ومر القس على جبهة الرجل العجوز بالزيت المقدس ، وعلى راحتى اليدين اللتين لم تريدا اقتراف العنف ، والقدمين اللتين حملتاه بعيدًا عن صحبة البشر وكأنهم الشر مجسمًا . وأرسلت شمس المغيب داخل الكوخ ضوءًا أخيرًا مشعشعًا . بدا « أنطيوكو» بين الرجل المحتضر والقسيس كأنه جمرة متقدة بين قطع من الفحم المنطفىء . وقال « باولو لنفسه : « لِنَعُدْ ، ليس هناك ما يدعونا إلى البقاء هنا » . وقال بصوت مسموع وهو يعود إلى الخارج :

ـ حالته خَطِرة . هو لم يعد يعى شيئاً .

وقال الحارس بتحديد :

ـ حالة غيبوبة .

ـ بعد ساعات سيلقى ربه ، لابد من تدبير أمر الجثة .

وهَمَّ من جديد بأن يضيف : « سيقتضى الأمر أن نمضى الليلة هنا » . ولكنه خجل من نفسه . وعلاوة على ذلك شعر بدافعٍ إلى السير والعودة إلى أسفل . وحين هبط الليل عادت المعصية إلى اجتذابه وتغليفه بشبكة الظلام . وتنبه هو إلى ذلك . وتولاه الفزع ، ولكنه كان ساهرًا فى الواقع ، وكان يشعر بأن ضميره يقظ ، وأنه سيهب للأخذ بيده .

ـ إذا قضيت هذه الليلة بدون أن أراها فقد نجوت

آه لو أن أحدًا نجح فى احتجازه ! لو أن العجوز نهض وأمسكه من سترته ليستبقيه ! وعاد إلى الجلوس فى محاولة لكسب الوقت . وكانت الشمس قد أَفَلَتْ فوق خط الهضبة الأقصى ، وهناك كانت ترتسم جذوع شجر البلوط على خلفية حمراء فى الأفق كأعمدة رواق يعلوه إفريز أسود كبير . الموت ذاته لم يكن يزعج سلام هذه الوحدة الكبرى . وشعر « باولو » بالتعب ، وأحس ـ كما أحس فى الصباح عند قدم المذبح ـ برغبة فى التمدد على الحجارة والاستغراق فى النوم .

وفى هذه الأثناء كان الحارس قد اتخذ قرارًا لحسابه الخاص . كان قد ركع بدوره إلى جوار الرجل المحتضر وأسر إليه بشىء فى أذنه . وكان ابن الأخ ينظر إليه فى ارتياب ، ولكن أيضًا بشىء من السخرية ، واقترب هذا الأخير من القسيس وقال :

ـ الآن ، وقد أديت واجبك ، اذهب . اذهب فى سلام . أنا أعرف ماالذى يتعين فعله .

وعاد الحارس إلى الخارج وقال :

ـ لم يعد يتحدث ، ولكننى فهمت من إشارة صدرت منه أنه رتب كل أموره . وأضاف وهو يستدير إلى ابن الأخ :

هل أنت تستطيع أن تؤكد لنا ، وأنت مرتاحُ الضمير ، أن بوسعنا أن نذهب ونحن مطمئنون ؟

ـ لولا ضرورة إعطاء المسح الأخير المقدس لكنتم فى غِنًى عن الحضور . ما الذى يهمكم من شئون ؟

ـ لابد من احترام القانون . لا ترفع صوتك يا « نيقوديمو بانيا » . وقال القس وهو يشير إلى الكوخ :

ـ حسبكما الآن . . لا تصيحا !

وقال الحارس بلهجة رسمية :

ـ لقد تعلمت منه أنه ليس فى الحياة سوى واجب واحد ، هو قيام المرء بواجبه . وقفز القسيس على قدميه وقد وخزه هذا القول . كل شىء يخاطب الآن قلبه ، وبدا له أن الإله ذاته يعبر له عن مشيئةٍ بأفواه البشر . وامتطى صهوة الفرس من جديد ، وقال لابن أخى العجوز :

لا تترك عَمَّكَ مادام فيه نَفَس يتردد . الرب كبير ، ونحن لا ندرى أبدًا ما يمكن أن يحدث .

وصحبه الرجل شوطًا من الطريق ، ثم قال له حين ابتعدا عن الحارس :
ـ أريد أن أفضى إليك بشىء : العم أعطانى نقوده بالفعل . إنها هنا تحت إبطى . ليست كثيرة . هل أعتبرها ملكاً لى أياً كانت ؟

ـ إذا كان قد وهبها لك فهى ملكك .

قالها « باولو » واستدار ليرى ما إذا كان الآخران يتبعانهما . كانا يتبعانهما بالفعل . وكان « أنطيوكو » يتكىء على عصاً صنعها من فرع شجرة نبق ، أما الحارس فقد استدار ، وحافة القبعة وأزرار ردائه تلمع فى انعكاس الشفق . وقبل أن يأخذ الطريق الزراعى أدى التحية العسكرية فى اتجاه الكوخ . كان يحيى الميت . وبدا أن الصقر يرد التحية من عشه ، فقد خفق مرة أخرى بجناحيه قبل أن يخلد للنوم .

كانت الظلال تصعد بسرعة من الوادى ، وما برحت أن غطت الرجال الثلاثة ، ولكنْ ثَمة نور أتى من البلدة الصغيرة عند منعطف الطريق الزراعى أضاء لهم الطريق ، وبدا كأَنَّ ناراً كانت تشتعل فى ذلك المكان ، فقد كانت ألسنة عظيمة من اللهب تتصاعد فوق الجسر ، واستطاع الحارس بنظره أن يرى ظلالا كثيرة تتحرك فى ميدان .

كان اليوم يوم سبت ، وكان المفروض أن يكون كل الرجال قد عادوا إلى البلدة . ولكن هذا لم يكن يفسر السبب فى اشتعال النار ، ولا فى هذا الهياج غير المعتاد . وقال « أنطيوكو » بسعادة :

ـ أنا أعرف السبب . هم ينتظرون وصولنا ، ويريدون الاحتفال بمعجزة «نينا مازيا » .

وهتف القس وهو ينظر بما يشبه الرعب إلى المنحدر الذى تشرف عليه البلدة التى أضاءتها النيران :

« ياإلهى !! يا أنطيوكو . . ألا ماأَغْبَاكَ ياأنطيوكو » !

ولم يُبْدِ الحارس رأياً فى الموضوع ، ولكنه فى صمته المزرى هز سلسلة الكلب فنبح . وترددت فى الوادى صيحات خشنة ، وبدا للقس فى لهفته أن صوتاً خفيًّا يهاجمه ويعنفه على خديعته لأهل أبرشيته البسطاء . وسأل نفسه : « ماالذى جنيتُه عليهم ؟ لقد أزريتُ بهم كما عبثُ نفسى . رَبُّ خَلِّصْنَا جميعاً . » وعرضت له أفكار بطولية : أن يتوقف ، لدى وصوله ، وسط المؤمنين ، ويعترف بخطيئته وتعاسته ، ويفتح صدره أمامهم لكى يضىء قلبه للقس الذى يتوهج بشعلة ألمه أكثر من توهج أغصان الشجر على الجسر . على أن هاتفًا صعد من أعماق ضميره يقول :

ـ الذى يحتفلون به إنما هو إيمانهم : هم يحتفلون بالرب فى شخصك ، وليس من حقك أن تضع نفسك وتعاستك بينهم وبين الرب .

لكنَّ صوتاً آخر من مكان أعمق فى ضميره قال له :

ـ ليس هذا هو الموضوع ، الموضوع أنك وضيع . أنت تخشى المعاناة والاحتراق الحقيقى .

وكلما اقترب من القرية ومن الناس شعر بأنه أكثر حيرة وضياعًا منه فى أى وقت مضى . ماذا يفعل ؟ بدا له كأن الظلال والأضواء التى تلقيها نيران الجسر فى كل مكان ، فوق كل حجر ، وكل فرع ، صادرة عن ضميره . ولكن أين هذه الحقيقة ؟ وتذكَّر وصوله إلى البلدة منذ سنوات ، وأمه التى كانت تتبعه مشفقة كما لو كانت تتبع طفًلا يخطو خطواته الأولى . وقال لنفسه : « لقد سقطت أمامها واعتقدتْ هى أنها رفعتنى ، ولكننى مكلوم حتى الموت . رباه ، رباه ! »

وفجأة غمره شعور بالارتياح حين تصور أن هذا الحفل المرتجل سيصرفه عن همه ، وقد يصرفه أيضا عن موطن الخطر ، وقال لنفسه : « سأصحب شخصاً معى إلى البيت وسنقضى السهرة معًا . وإذا تأخر الوقت . . إذا انقضى الليل ، نجوت ! »

أفهم الآن ، حين يرفعون أبصارهم إلى أعلى ، يرون النقاط السوداء ، والتى ترسمها قمم معاطف الرجال المنحنين على حاجز الميدان الحجرى ، وألسنة اللهب ، فى مكان أعلى ، على جانبى الكنيسة تخفق فى الهواء كأنها أعلام حمراء ، وإذا كانت دقات جرس الكنيسة لم تكن تُسْمَع ساعتها ، كما كانت تُسْمَع فى تلك المناسبة غير أن آلة « أكورديون » كانت تصحب اهتزاز الضوء فى أنحاء المكان بموسيقاها الحزينة .

ها هو ذا كوكب من فضة يظهر على الجرس ثم يتحطم فورًا ويختفى فى فرقعة يتردد صداها فى أرجاء الوادى ، وتبع ذلك صيحة فرح ، ثم التماع أضواء متلألئة شتى ، وصوت انفجار. إنها الألعاب النارية . وأطلق أحدهم رصاصة تعبيرًا عن البهجة كما يحدث فى ليالى الاحتفالات الكبرى . وقال الحارس :

ـ لقد جُنُّوا !

واندفع يجرى بكل قوته ، وكلبه ينبح بغضب ، وكأنَّ هناك ثورة لابد من قمعها . أما « أنطيوكو» فكان على العكس ، إذْ انتابته رغبة فى البكاء . كان ينظر إلى القس فى مكانه العالى على صهوة الفرس ، كلاهما أسود فى ضوء النيران ، ويُخيل إليه أنه قديس فى موكب . على أنه قال لنفسه : « أمى ستكسب مالاً كثيراً هذه الليلة من وراء كل هؤلاء الناس المبتهجين » . وبلغ من سعادته أَنْ فَرَدَ العباءة ووضعها على منكبيه ، ثم طلب أن يحمل الحقيبة الصغيرة ، ولكنه لم يترك العصا . وعلى هذا الشكل دخل البلدة وكأنه واحد من مجوس المشرق . ونادت ابنة أخ الصياد العجوز القس من بابها وسألته عن أبناء عمها ، فقال :

ـ كل شىء على مايرام .

ـ تحسنت صحة العم إذن ؟

ـ عملكِ هذه الساعة فى عداد الأموات .

وأطلقت الفتاة صيحة كانت النغمة النشاز الوحيدة فى الاحتفال .

ونزل الأطفال للقاء القس ، وأحاطوا بالفرس كأنهم سرب من الذباب ، ثم صعد الجميع حتى الميدان ، ولكنَّ المتجمهرين لم يكونوا بالكثرة التى بَدَوْا

عليها من على البعد ، وقد ضاعفت الظلال أعدادهم . وترتب على وجود الحارس مع كلبه أن ساد شيء من النظام فى المكان . ووقف الرجال فى صف قريباً من الحاجز الحجرى تحت الأشجار التى انعكس عليها وهج النيران . وكان بعضهم يحتسى الخمر أمام مائدة صغيرة وضعتها أم «أنطيوكو» . أما النسوة بأبنائهن النائمين على أذرعهن فقد جلسن على درجات الكنيسة وفى وسطهم « نينا مازيا » ، هادئة كَهِرَّةٍ تغطُّ فى النوم . وبدا الحارس مع كلبه فى وسط الميدان كأنه تمثال . وما إن ظهر القسيس حتى تحرك الجميع ليحفوا به . على أن فرسه الذى هَمَزَهُ القسيس دون أن يراه أحد أسرع الخطو فى محاولة للنزول فى الجانب المقابل للكنيسة الذى كان فيه بيت صاحبه . لكن صاحب الفرس ـ الذى كان أحد الشاربين الواقفين أمام الحانة ـ تقدم والقدح فى يده وأوقف الفرس من لجامه وخاطبه قائلا :

ـ ماذا جرى لك أيها الفرس الصغير البليد ؟ أنا هنا .

وتوقف الفرس فجأة ، ومد شفتيه وسط اللجام وكأنه يطلب شيئاً من نبيذ سيده . وأتى القس بحركة مَنْ يهم بالنزول ، ولكن الرجل أوقفه وهو على ساق واحدة ، وقاد الفرس والفارس إلى الحانة ، ودفع قدحه إلى صاحبٍ له كان يمسك فى يده بزجاجة النبيذ .

والتف الجميع ـ رجالا ونساء ـ حولهم ، وعلى خلفية باب الحانة المذهَّب ظهرت أم « أنطيوكو » ، طويلة بدينة ، وبدا وجهها فى وهج النيران كأنه من نحاس وهى تتطلع إلى المنظر بابتسامة . وصحا الأطفال الرضع فى أذرع أمهاتهم وأخذوا يَتَلَوَّوْنَ قليلاً فى فزع ، وكانت حركتهم تجعل التمائم المرجانية والذهبية تُشَخْشِخ ، تلك التمائم التى كان أهلهم ـ حتى أفقرهم ـ يربطونها بأعضائهم . . وكان القس يبدو ـ بين تموج الحشد الرمادى من مكانه العالى

على صهوة الفرس ـ كراع حقيقى وسط قطيعه ، ووضع رجل عجوز ذو لحية بيضاء يده على ركبة القس وأدار وجهه نحو الناس بصوت غلبه التأثر :

ـ أيها الناس ، هذا ـ حقيقة ـ رجل من رجال الرب . وقال صاحب الحصان وهو يدفع قدحه إلى « باولو » :

ـ إذن فاشربْ واجعل النبيذ يزداد .

وأخذ «باولو» القدح وقربه من شفتيه . على أن أسنانه كانت تصطك ، وبدا له النبيذ الذى احمرَّ لونه من انعكاس النار كأنه دم .

وجلس من جديد أمام مائدته فى غرفة الطعام الصغيرة التى يضيئها مصباح زيتى . كان القمر يبدو كبيراً مذهباً فى كبد السماء الشاحبة فوق الجسر الذى كان يبدو فى خلفية النافذة الصغيرة كأنه جبل .

وكان بعض الفلاحين ـ العجوز ذو اللحية البيضاء ، وصاحب الفرس ، وغيرهما ـ قد بقوا حتى هذه اللحظة للسمر بناء على دعوته . وشرب الجميع وتمازحوا وقَصَّ بعضهم على بعض حكايات عن الصيد . وانتقد العجوز ذو اللحية البيضاء ـ الذى كان هو أيضا صيادًا ـ « الملك نيقوديمو » ؛ لأن هذا العجوز المعتزل لم يكن فى رأيه يمارس الصيد طبقاً للقانون الإلهى . وقال :

ـ أنا لا أريد أن أتحدث عنه بسوء فى ساعته الأخيرة ، ولكننى أقول : إنه كان فى الحقيقة يمارس الصيد بهدف واحد هو المضاربة . . فى الشتاء الماضى تَلَقَّى مقابل فراء حيوان « السَّمُّور» وحده آلاف الليرات . والله يعلم أن الحيوانات قُتلت قتلاً ولم تكن تائهة . كذلك فإنه كان ينصب لها الفخاخ ، وهذا شىء غير جائز ، فالحيوانات تتألم مثلنا ، والساعات التى تقضيها فى الفخ ـ قطعاً ـ ساعات رهيبة . لقد رأيت ذات مرة بعينىَّ هاتين فَخًّا تَرَكَ فيه

أرنبٌ بريٌّ قَدَمَهُ . أفهمتم ؟ الأرنب الذى وقع فى الفخ قَرَضَ اللحم المحيط بقدمه ثم انتزعه ليتمكن من الفكاك . ثم ماذا كان « نيقوديمو » يفعل بالنقود ؟ كان يخفيها . وسيتكفل ابن أخيه الآن بتبديدها خلال أيام .

وقال صاحب الفرس ـ وكان رجلاً مغرورًا :

ـ النقود ما صُنعت إلا لتُنْفَق . أنا مثلا كنت أنفقها دائماً ، إن لم يكن لشيء فللترويح عن نفسى ، دون أن يكون فى ذلك أَذًى لأحد . حدث ذات مرة فى أحد الأعياد أن كان عندى مبلغ لم أكن أعرف كيف أنفقه ، وكان هناك رجل من تجار المناخل مارٌّ ومعه حمولة من سلعته ، فأوقفْتُه وابتعتُ كُلَّ ما كان معه من المناخل ، وأطلقتها تجرى كالعجل فى الميدان ، وجريت وراءها ، وجعلت أدفعها بقدمى ، وبعد لحظة كان الناس كلهم ورائى يضحكون ويصيحون . وأخذت الفتيات والصبية ـ بل وبعض الرجال الجادين ـ يقلدوننى . حكاية لايزال الجميع يذكرونها حتى هذه الساعة . فى كل مرة كان القسيس السابق يرانى فيها ، كان يصيح من بعيد : « قل لى ، يا «باسكوالى مازيا » أليس عندك منخل لتدفعه أمامك ؟»

وكان المَدْعُوُّون يضحكون . أما القسيس فكان يبدو شارد الذهن ، وكان ظاهر الشحوب والتعب . وأومأ العجوز ذو الحية البيضاء ، الذى كان يلحظه بتوقير شديد ، إلى رفاقه يدعوهم إلى الانصراف . لقد حان الوقت لترك خادم الرب لعُزلته المقدسة ولأخْذ ما يستحقه من راحة . وقام الضيوف فى وقت واحد وتقهقروا قليلاً للتحية . ثم وجد « باولو » نفسه وحيدًا ، بين شعلة المصباح المرتعشة والقمر الذى كان يطل عليه من النافذة الصغيرة . وفى الخارج كان صوت أحذية الرجال المبتعدين ـ التى رُكبت فى نعالها قطع من الحديد ـ يتردد على الحجارة التى بُلِّطَ بها الشارع المقفر .

لم تكن ساعة الذهاب إلى الفراش قد حانت بعد . وبرغم أن « باولو» كان يشعر بألمٍ فى كل جسمه ، وأن عنقه كان محطماً من التعب وكأنه قضى اليوم وهو يحمل نيرًا كنير الثور ، فإنه لم يفكر على الإطلاق فى الصعود إلى غرفته . كانت الأم لا تزال فى المطبخ ، هو لم يكن يراها ، ولكنه كان يشعر أنها كانت ساهرة كشأنها فى الليلة السابقة . وبدا له أنه نام طويلا ثم أفاق فجأة ، وأن العودة إلى البيت ، و«آنييس» ، وأفكار الليل ، والخطاب ، والقداس ، والرحلة إلى الهضبة ، ومظاهرة الفلاحين ـ لم تكن سوى أضغاث أحلام ، أما الحياة الحقيقية فقد بدأت الآن . وخرج : خطوتان ، عشر خطوات ... وفتح الباب ، وعاد إليها . . الحياة الحقيقية بدأت من جديد . وقال لنفسه : « من الجائز أنها لا تنتظرنى . هى لم تعد تنتظرنى ». وشعر بأن ركبتيه تتخاذلان وتنثنيان وأمسك الرعب بخناقه من جديد . لا لفكرة العودة إليها ، بل بفكرة أنها قبلت مصيرها وبدأت تنساه بالفعل . وأدرك فى أعمق فؤاده أن ألمه العظيم ـ بعد أن عاد من الهضبة ـ كان هذا : إنه لا يعرف عنها شيئاً ، وصمتها واختفاؤها . الموت الحقيقى كان هذا : أن تكف عن حبه . وأخفى وجهه بين يديه وحاول أن يراها ، وبدأ يؤاخذها على كل ما كان يجب أن يؤاخذ عليه نفسه :

ـ « آنييس » ، أنتِ لا يمكن أن تنسى وعودكِ . كيف ؟ كيف تستطيعين نسيانها ؟ أنت ضغطت معصمى بيديكِ القويتين وقلتِ لى : «نحن مرتبطان للحياة وللموت . . هل من الممكن أن تكونى قد نسيتِ ؟ أنتِ قلت : «أتعرف ، أتعرف ؟ » .

ومر بأصبعه على رقبته حول العنق ، وخُيل إليه أنه يختنق . وقال لنفسه : « إنه الشيطان أوقعنى فى حبائله » وفكر فى الأرنب الذى قرض رجله .

وتنفس بعمق ونهض وأخذ المصباح . كان يريد أن يـضغط على إرادته أن يقرض هو الآخر لحمه لكى يتحرر . وقرر أن يصعد إلى غرفته ، ولكنه حين هَمَّ بالصعود رأى الأم . . كانت جالسة فى نفس مكانها فى المطبخ الصامت وبجوارها « أنطيوكو » الذى كانت قد أخذته سِنَةٌ من النوم . واقترب من الباب وسأل :

ـ ماذا يفعل هذا الفتى هنا فى هذه الساعة ؟

واستدارت الأم ونظرت إليه فى تردد ، ودت ألاَّ تتكلم ، وأن تخفى «أنطيوكو» بطرف سترته لكيلا يتوقف « باولو » ، ولكى يذهب إلى غرفته . هى الآن تثق فيه ثقة كبيرة ، ولكنها تفكر كذلك فى الشيطان وفى شِراكه . غير أن « أنطيوكو » استيقظ ، وتذكر السبب الذى جعله ـ بالرغم من دعوة المرأة له بالذهاب ـ يبقى فى البيت وينتظر . قال :

ـ أنا هنا لأن أمى تنتظر زيارتك .

واعترضت الأم قائلة :

ـ أهذه ساعة زيارات ؟ اذهب . أَبْلِغْهَا أن « باولو » متعب ، وأنه سيذهب إليها فى الغد .

كانت وهى تخاطب الفتى تنظر إلى ابنها. ورأت « باولو» ينظر إلى مصباح الزيت بعينين زجاجيتين ، ولكن رموشه كانت ترف كجناحى فراشة ليلية بجوار المصباح .

وقام « أنطيوكو » مُتحسرًا وقال :

ـ المسألة هى أن أمى فى الانتظار لأمر تعتقد أنه خطير .

ـ مادام الأمر خطيرًا فاذهب ، وأخبرها بسرعة بما قُلته لك . هيا ،

اذهب. قالت ذلك بحِدَّة . . ورفع « باولو » عينين متقدتين ، فقد شعر بأن أمه تخشى أن يخرج . واستشاط غضباً ، ووضع المصباح على المائدة بقوة، وقال لأنطيوكو :

ـ سنذهب لأمك . هيا بنا .

غير أنه استدار وهو فى الممر وأضاف :

ـ سأعود فوراً يا أمى . اتركى الباب مفتوحاً .

ولم تتحرك الأم ، ولكنها ذهبت بعد أن خرجا لترقبهما من الباب نصف المفتوح ، ورأتهما يجتازان الميدان الذى يسبح فى سنا القمر الأبيض ويدخلان الحانة التى كانت لا تزال مضاءة . ثم دخلت وانتظرت كما فعلت فى الليلة السابقة . وأدركت فى عجب أنها لا تخشى عودة القس القديم إلى الظهور . ومع أنَّ كل شىء كان حلماً فإنها لم تكن على يقين من أن الشبح لن يعود ليسألها عن رَتْقِ الجورب .

ـ أجل ، لقد رَتَقْتُهُ . قالتها بصوت عالٍ وهى تفكر فيما فعلته لابنها . وقدرت أن الشبح إنّ عاد فستعامله معاملة الند للند ، وستجد أنها توافقه .

كان كل شىء هادئاً فى سكون القمر ، وكانت ترى من خلال زجاج النافذة الصغيرة أشجار الجسر المزدهرة ، وكأن كل ورقة فيها كانت تبعث بريقاً فضيًّا . وبدت السماء وكأنها من لبن حليب ، وعبق البيت برائحة الأدغال الصغيرة العطرة . هى أيضاً كانت هادئة ، ولم تكن تدرى لِمَ لا ينتابها الجزع وهى تعلم أن ابنها « باولو » لا يزال معرضاً للوقوع فى المعصية . ورأت فى تلك اللحظة رموشه وهى ترف كطفل يوشك على البكاء . ورق قلبها ـ قلب الأم ـ من الإشفاق ، فهتفت :

ـ لماذا يارب ؟ لماذا ؟

ولم تجرؤ على إتمام السؤال ، ولكنه كان قابعًا فى حناياها كحجرة فى قاع بئر. لِمَ يارب لا يملك « باولو » أن يحب امرأة ؟ الكل من حقهم أن يحبوا حتى الخدم والشحاذون ، حتى العُمْى والمحكوم عليهم بالسجن . ماالذى يجعل ابنها وفلذة كبدها «باولو » وحده الذى حُرم عليه الحب ؟ ! على أن الشعور بالواقع أحاط بها من كل جانب ، وتذكرت كلام « أنطيوكو» ، وأخجلها أن تكون أقل حكمة من طفل .

ـ هم أنفسهم ، القسس الأصغر سنًّا ، طلبوا أن يعيشوا أحرارًا طاهرين بعيدًا عن النساء .

ابنها « باولو» رجل قوى ، ليس أقل شدة من أسلافه القدامى . هو لم يَبْكِ . لا ، جفناه كانا ـ كأجفان الموتى ـ لا يطرفان . هو رجل قوى ، صلب العود . وقالت لنفسها : « أنا التى عُذْتُ طفلة » .

أجل ، بدا لها أن السن تقدم بها عشرين سنة فى هذا اليوم الحافل بالانفعالات . كانت تتلقى فى كل ساعة ضربة . كل دقيقة تمر كانت تشطف روحها كما يشطف نصل آلة كسر الحجارة كتل الحجارة العاتية هناك خلف الجسر ، وأشياء كثيرة بدت لها واضحة أو مختلفة عمَّـا كانت عليه فـى اليوم السابق . هيئة « آنييس » التى رفضتها بكبرياء فى داخلها ـ كانت تبدو أمامها كل حين . وقالت لنفسها : « هى أيضاً قوية وستعرف كيف تخفى كل شىء » .

وقامت وغطت النار فى بطء ، غطتها جيدًا بحيث لا تخرج شرارة من الرماد تعلق بشىء قريب . ثم ذهبت وأغلقت الباب وهى تعرف أن ابنها يحتفظ دائمًا بالمفتاح . وسارت بحزم وعزم وكأنها أرادت له أن يشعر بها حتى

وهو بعيد ، وأن يعلم أن خطوها الواثق يعبر عن اطمئنانها الداخلى . صحيح أنها كانت تشعر بأن هذا الاطمئنان لم يكن فى النهاية عميق الجذور، ولكن هل فى حياتنا شىء عميق الجذور ؟ ياإلهى ! حتى قواعد الجبال ، حتى أركان الكنيسة ليست وطيدة ؛ لأن الزلزال يستطيع أن يقوضها . هى وإن كانت الآن واثقة من ابنها « باولو » ثقتها من ذاتها ، فإنها تشعر بخوف من المجهول الذى قد يأتى به الغيب . وارتمت فى غرفتها على مقعدها وهى تتساءل عَمَّا إذا لم يكن من الأفضل أن تترك الباب مفتوحاً . ثم نهضت وبدأت تحل رباط الإزار ، ولكن عقدة الإزار كانت مشتبكة بدرجة أثارت حنقها . لابد من قطع الرباط ! وخطت خطوة لتبحث عن المقص فى سلة أشغالها . وكانت قطة البيت الصغيرة راقدة فى السَّلَّة ، فسخنت من التصاقها بها بكرات الخيط ، كما سخنت المقص ، وشعرت هى بالمقص بين أصابعها وكأنه كائن حى . ولكنها أعادت المقص إلى مكانه بعد لحظة . لا، إنها تريد أن تفك العقدة لاأن تقصها ، واقتربت من مصباح الغاز ، وشدت عقدة الإزار إلى الأمام وعالجتها بأصابعها إلى أن توصلت إلى فكها . وتنفست الصعداء ، ثم استمرت فى خلع ملابسها فى تمهل وطوتها بعناية على المقعد بعد أن أخذت المفاتيح من جيب الثوب وصَفَّتْها كأنها أفراد أسرة تستريح على طرف المنضدة الصغيرة بجوار الفراش . هكذا علمها سادتها الذين عملت عندهم : النظام ، النظام . .

إنها ما زالت تطيع الأوامر القديمة .

وعادت إلى الجلوس وقميصها القصير يتدلى على ساقيها اللتين بدتا وكأنهما قُدَّتاً من خشب . وتثاءبت . . تثاءبت من الإعياء . . من الإذعان . . لا . فليعد ، وسيجد عند الباب المغلق ثقة الأم المطلقة . لابد

من أخذه هكذا ، بالثقة المطلقة . ومع ذلك أرهفت سمعها بصورة مختلفة عن الليلة السابقة ، نعم أرهفت السمع ، وخلعت فَرْدَتَيِ الحذاء ووضعت إحداهما بجوار الأخرى كأختين رفيقتين لا تفترقان حتى فى الليل . واستمرت فى الصلاة والتثاؤب . كانت تتثاءب من الإعياء والإذعان ، وأيضاً من تعب الأعصاب .

ما الذى ذهب ليقوله لأم « أنطيوكو» ؟ المرأة لم تكن تتمتع بسمعة طيبة . . كانت تقرض بالربا . . وكان يُقال أيضاً : إنها قَوَّادَة . لا. ونفخت فى المصباح ، وأطفأت الذبالة بأصبعيها بعد أن بلتهما بريقها ، وصعدت إلى فراشها ، ولكنها لم تتمكن من التمدد عليه . وبدا لها أنها تسمع وقع خطوات فى الغرفة . هل هو الشبح عاد من جديد ؟ خوف عظيم انتابها وهى فى الفراش ، وطغى عليها ، وغَمَّى على عقلها . وتجمد الدم فى عروقها ثم تدفق إلى القلب كأنه حشد هائج من الناس فى شوارع المدينة يهرع إلى الميدان. ومضت لحظات ، ثم استردت أنفاسها ، وخجلت من خوفها الذى لابد أنه كان نتيجة للشكوك الدنسة التى خالجتها بشأن ابنها « باولو» . لا. إنها لاتريد ، لا تريد بعد الآن أن تحقق فى أى عمل من أعماله مهما قل شأنه . عليها أن تلتزم الهدوء ، فى الظلام ، هكذا ، فى غرفتها ، غرفة الخادمة . وتمددت على الفراش وغطت نفسها . غطت أذنيها أيضًا لكيلا تسمع : هل عاد أو لم يَعُد . ولكنها فى داخلها شعرت كذلك . شعرت بأنه لم يعد ، بأن أحدًا قد ابتعد به ـ على كُرْهٍ منه ـ كشخص يُساق بالرغم منه إلى حفلة راقصة .

كانت مع ذلك واثقة منه ، ومن أنه سيعرف ـ عاجلاً أو آجِلاً ـ كيف يُخلص نفسه . ثم إنها هنا ـ وإنْ كانت تحت الأغطية ـ غيرُ نائمة . وبدا لها

أنها مازالت تتحسس عقدة الإزار المشتبكة ، وأنها قررت أن تفكها . ثم إن طنينَ أذنيها تحت الغطاء بدا لها كأنه لَجَبُ جُموع هناك فى الميدان وأبعد من الميدان . لجب أناس يشتكون ، ولكن أيضاً يضحكون ويغنون ويرقصون . وكان ابنها « باولو » فى وسطهم . وفوق ، فى مكان عالٍ كان هناك من يعزف أنغاماً عذبة على القيثارة . لعلها ملائكة الرب تعزف فوق حفل البشر .

أعملت أم « أنطيوكو » عقلها طوال اليوم فى تدبر الآثار التى يمكن أن تترتب على زيارة القس لها ، ولكنها تحرزت من إظهار أنها كانت تنتظر هذه الزيارة، ومن يدرى ؟ فقد يريد أن يبدى لها رأيه بشأن إقراضها بالربا ، وبشأن بعض المهن الأخرى التى تحترفها ، كإعارة بعض الأيقونات القديمة التى ورثتها عن أسرة زوجها لأغراض طيبة ، وإن كانت تتقاضى دائماً مقابلاً صغيرًا عن تقديم هذه الخدمة . لعله أيضاً يريد منها قرضاً لنفسه أو لغيره . أياً مَـا كان الأمر فإنها ـ بعد خروج آخر الزبائن ـ اقتربت من الباب ويداها فى جيبيها اللذين أثقلتهما قطع النقود النحاسية . ونظرت إلى الخارج لعل « أنطيوكو» على الأقل يكون قد عاد . ورأت « أنطيوكو » بالفعل وبصحبته القس يقتربان عبر الميدان . ويبدا الاثنان قائمين فى ضوء القمر . وتظاهرت بأنها كانت بسبيل إغلاق الباب ، ولكنها لم تغلق فى الواقع إلا نصفه . كانت خفيفة الحركة برغم بدانتها ، وكان رأسها صغيرًا على خلاف أهل بلدتها ، ولكن كان يزيد من حجمه كعكة كبيرة عقصت فيها ضفائرها السُّود . وحين اقترب القسيس انتصبت وحيته باحترام ، ولكن دون أن تبارح عيناها السوداوان الناعستان والمتقدتان عينيه . ورجته أن يصحبها إلى الغرفة الداخلية ، فى حين كان « أنطيوكو » يتوسل إليها بعينيه أن تصر على دعوته . ولكن القسيس قال بلطف :

ـ لِنَبْقَ هنا . . لنبق هنا .

وجلسا أمام مائدة من مائِدَتَيِ الحانة الطويلة ، اسودَّ لونها من النبيذ ، وبقى « أنطيوكو » واقفاً إلى جوار القس بخضوع وهو يدير رأسه هنا وهناك ليرى إذا كان كل شيء فى مكانه ، وآمِلاً ألاَّ يصل أى زبون . ولم يأت أحد، وسار كل شيء على مايرام . وغطى ظل المرأة الضخم رف قنينات الخمر الخضراء والحمراء والصفراء خلف المائدة فى حين كان ضوء مصباح الكيروسين يسطع على براميل الجعة الصغيرة السوداء ، التى بدت كأنها تستند إلى الحائط المقابل . ولم يكن هناك على أى حال إلا المائدة التى جلس إليها القس ، ومائدة أخرى منعزلة . وفى أعلى الباب كانت صُحبة من نبات «الوزال » الذى تُصنع منه المقشات مُعلقة لغرضين : إبلاغ المارة بأن هذا هو باب الحانة ، واصطياد الذباب .

كان « أنطيوكو » طوال اليوم يترقب هذه الساعة ، وكان يُخيل إليه أن سرًّا من الأسرار سيُمَاطُ عنه اللثام فيها . كان يخشى أن يحضر أى شخص غريب ، أو أن تظهر أمه بمظهر سيىء ، ويود لو كانت أكثر تواضعاً وأكثر خضوعاً أمام القس . والذى حدث على العكس ، هو أنها عادت إلى مكانها أمام المائدة ، وأن هيئتها كانت هيئة ملكة تتربع على عرشها ، وبدا أنها تجهل أن هذا الرجل ـ الجالس كأى زبون عادى إلى مائدة الحانة ـ قديس يصنع المعجزات . ولم تُظْهِر أمه له امتناناً ، حتى لكمية النبيذ الكبيرة التى باعتها بفضله فى هذا اليوم . ولكن هاهو ذا القس يتحدث أخيرًا :

ـ كان بودى أن أرى زوجك أيضاً .

بدأ بهذا القول وهو متكىء بمرفقيه على المائدذة ، وشبك أطراف أصابعه المفتوحة قليلا الواحد بالآخر ، ونظر من خلالها ثم استطرد :

ـ ولكن « أنطيوكو » قال : إنه سيعود يوم الأحد القادم .

وأَوْمَأت المرأة إيماءة خفيفة برأسها . وقال « أنطيوكو » باندفاع لم يلتفت إليه أحد :

ـ أجل سيعود يوم الأحد القادم . ولكن إن أَرَدْتَ فباستطاعتى أن أذهب لا ستدعائه .

وقال القسيس :

ـ الأمر يتعلق بهذا الفتى : لقد حان الوقت الذى يتعين أن تهتما فيه جديًّا بأمره .

لقد كبر ، ولابد من تعليمه مهنة أو ـ إن أردتم أن تجعلوا منه قسيساً ـ من التفكير بصورة جدية فى المسئولية التى ستقع على كاهلكم .

وفتح «أنطيوكو » شفتيه ، ولكنه حين رأى أن أمه بدأت تتحدث استدار ليستمع إليها ، وإن كان ظِلٌّ من عدم الموافقة ظَهَر على وجهه المنفعل . وانتهزت المرأة الفرصة كعادتها لمدح زوجها ، وأيضا لتعتذر عن كونها تزوجت رجلا يكبرها بكثير . قالت :

ـ زوجى « مارتينو » ـ كما تعلم قداستكم ـ رجل حى الضمير أكثر من أى شخص فى العالم . هو نِعْمَ الزوجُ ، ونِعْمَ الأب ، وهمته فى العمل ليس لها مثيل . مَنْ مِنْ أهل قريتنا يعمل مثله ؟ قل لى أنت ياصاحب القداسة ، يامن تعلم شهرة بلدتنا فى الكسل والتواكل التى جرت بها ألسنة الناس حولنا . . إنى أقول لك : إذا كان « أنطيوكو » يريد أن يختار حرفة لنفسه فما عليه إلا أن يتبع أباه ، فحرفة أبيه خير حرفة . الفتى حر ، وحتى إذا لم يكن يريد أن يفعل شيئاً ـ ولا أقول هذا من باب الغرور ـ فإنه ، والحمد لله ،

سيعيش بدون أن يضطر إلى السرقة . أما إذا أراد أن يتخذ لنفسه حرفة غير حرفة أبيه فهو حر : إن شاء أن يكون فَحَّاماً فليكن فحاماً ، وإن شاء أن يكون حَطَّاباً فليكن حطاباً ، وإن شاء أن يكون فلاحًا فليكن فلاحاً .

قال الفتى بشفتين مرتعشتين وعينين تنطقان بالعزم والإرادة :

ـ أريد أن أكون قسيساً .

ـ إذن فلتكن قسيساً .

وبدا أن مصيره قد تقرر . وترك القس يديه تسقطان على المائدة كورقتين بيضاوين ، ورفع وجهه ثم عاد فخفضه . وفجأة بدا له من السخف أن يهتم كل هذا الاهتمام بأمر شخص آخر . كيف يتأتى له أن يحل مشكلة مستقبل « أنطيوكو » إذا كان عاجزًا عن حل مشكلته هو . كان الفتى ماثلاً أمامه ، متحفزًا ومتوهجاً كالحديد المحمى الذى ينتظر أن تهوى عليه مطرقة الحداد لكى يتخذ شكله . كل كلمة تُقال يمكن أن تنفعه ، وكل كلمة تُقال يمكن أن تضره . ونظر إليه القس بحسد ، وأقر فى قاع ضميره تصرف هذه الأم التى تركت لابنها حرية اختيار مصيره . وقال وهو يواصل أفكاره بصوت خافت :

ـ الفطرة لا تخدعنا أبدًا . ولكن قل لى الآن يا « أنطيوكو وأمام والدتك : لماذا تريد أن تكون قسيساً ؟ حرفة القسيس هذه ليست حرفة . إنها ليست كحرفة الفحام أو الحطاب . قد تبدو لك مهنة هينة ومريحة ، لكنك سترى فيها بعد أنها مهنة شاقة للغاية . المرح والتسلية المسموح بهما لسائر الرجال محظوران علينا . حياتنا ـ إنْ أردنا حقيقة أن نخدم الرب ـ تضحية مستمرة .

وقال الفتى ببساطة :

ـ أعرف ذلك . أنا أريد أن أخدم الرب .

ونظر إلى أمه ؛ لأنه كان يشعر بشىء من الخجل لإظهار كل حماسة أمامها ، ولكنها كانت هناك هادئة متحكمة فى نفسها على منضدتها كهيئتها حين تخدم زبائنها . واستطرد الفتى قائلاً :

ـ أبى وأمى راضيان بأن أكون قسيساً . ما الذى يمنعنى من ذلك ؟ صحيح أننى الآن أشرد أحياناً لأنى ما زلت صبيًّا أيضاً ، ولكننى من الآن فصاعدًا سأكون جادًّا ويقظاً .

ـ ليست هذه هى المسالة يا « أنطيوكو» ، أنت بالعكس جادٌّ جدًّا ، ويقظٌ جدًّا . فى سنك يجب أن يكون الصبى خالىَ البالِ لاهياً . أن يدرس ويستعد لمواجهة الحياة ، نعم ، ولكن أن يكون صبيًّا أيضًا .

ـ ألستُ صبيًّا أنا ؟ أنا ألهو وألعب . أنت لا ترانى حين ألعب . ولكن إذا لم تكن بى رغبة فى اللعب فلن ألعب ؟ إنِّى ألهو بطرق شتى . حين أدق ناقوس الكنيسة أجد فى ذلك سعادة غامرة ، ويبدو لى أنى عصفور على الجرس . ألم أُرَفِّهْ عن نفسى اليوم ؟ لقد سرنى أن أحمل الحقيبة الصغيرة . وسَرَّنى أن أسير صاعدًا ، صاعدًا بين الحجارة ، وقد سبقتُكَ فى الوصول برغم أنك كنت تمتطى فرسًا ، وقد وجدتُ متعة كبيرة فى العودة . وأضاف وهو يخفض عينيه :

ـ وسُررت اليوم كثيرًا حين طردتَ أنت الشياطين من جسم « نينا مازيا . وابتسم القس بالرغم منه ، وسأل وهو يخفض صوته :

ـ أنت تصدق هذا ؟

ورأى عينى الطفل ممتلئتين عجباً وإيماناً ، فأرخى عينيه ليخفى ظل روحه القاتمة ،

وكرر باضطراب : الفتى يرى الأمور بصورة تجعل كل شىء يبدو له جميلاً وعظيماً ، ولكنه حين يكبر سيغير نظرته إلى الأمور . يجب أن تفكر فى الأمر جيدًا قبل أن تقدم عليه يا « أنطيوكو » لكيلا تعض بنان الندم فيما بعد .

ـ لا ، قلت لك لن أندم . هل ندمت أنت ؟ لا . أنا مثلك لن أندم .

ورفع « باولو» عينيه ، وبدا له من جديد أن روح هذا الطفل أمانة بين يديه كأنها تمثال من الشمع بوسعه ـ بلمسات قليلة ـ أن يشوهه . وتولاه الخوف من جديد فصمت .

وكانت المرأة تستمع فى هدوء . على أن الكلام بدأ يسبب لها شيئاً من السأم . وفتحت الصندوق الصغير الذى كان أمامها ، والذى كانت تحتفظ فيه بالنقود والخواتم مع العقيق الأحمر والدبابيس والحُلى التى كانت النسوة يُودِعْنَهَا لديها كرهن لقروض صغيرة . وتراقصت أفكار خبيثة فى جوانب ذهنها المظلمة ظلام هذه الحلى الأسيفة التى يضمها قاع صندوقها . وقالت لنفسها : « القس يخشى أن ينتزع منه « أنطيوكو » الأبرشية فيما بعد . أم لعله بحاجة إلى مال وهو ينفس أولا عن مزاجه المنحرف . الآن سيطلب السلفة» . وأغلقت الصندوق بهدوء ، واستعادت هيئتها الهادئة . كانت معتادة على الصمت وعلى عدم الانحياز لهذا أو ذلك ، حتى إذا طُلب منها إبداء رأيها فى المناقشات التى كانت تدور بين زبائنها ـ لاسيما إذا كانوا يلعبون الورق ـ ولهذا تركت صغيرها « أنطيوكو » يواجه خصمه بمفرده .

وقال « أنطيوكو» :

ـ كيف لا أصدق ؟ ألم يكن الشيطان يتقمص « نينا مازيا ؟ أنا نفسى سمعتُ الشيطان وهو يتحرك بداخلها كذئب فى قفص . كلمات الإنجيل التى تَلَوْتِهَا أنت هى وحدها التى حررتها .

وقال القس مُؤَمِّناً على كلامه :

ـ فعلاً كلمات الرب قادرة على كل شىء . ثم نهض فجأة . . هل كان يريد الانصراف ؟ ونظر إليه « أنطيوكو » بما يشبه الفزع وسأله :

ـ بهذه السرعة تريد الذهاب ؟

هل هذه هى الزيارة التى كان يحلم بها ؟ وجرى أمام المنضدة ، وأشار بيأس إلى أمه . واستدارت هذه وتناولت قنينة من الرف . هى أيضاً أُصيبت بخيبة أمل . كانت تطمع فى أن تقرض مالاً للقسيس ولو بفائدة بسيطة ، لِتُسْبِغَ أمام الرب نوعاً من المشروعية على إقراضها لغيره بالربا الفاحش ، وإذا به يجىء ولا لشىء إلا ليقول لا نطيوكو إن مهنة القسيس ليست كمهنة الحطَّاب . أيًّا ما كان الأمر فعليها أن تحتفى به .

قالت : سيدى القسيس ، لا يصح أن تذهب كذا ، أرجوك أن تقبل شيئاً ، هذا نبيذ قديم من القرن الماضى .

كان « أنطيوكو » قد أحضر الصينية وكأساً من الكريستال .

ـ قليلا ، قليلا ، وصبت المرأة النبيذ وهى تنحنى على المائدة وتحرص على ألاَّ تضيع قطرة واحدة منه . روفع « باولو » الكأس الذى كان للنبيذ بداخله رائحة كرائحة الورد الغامق وقدمه إلى الفتى ليتذوقه أولا ، ثم قربه إلى شفتيه وقال :

ـ إذن فلنشرب نخب قس « آر » المقبل .

واستند « أنطيوكو » إلى المائدة ، فقد انحنت ركبتاه : كانت هذه أسعد لحظات حياته . لم يتنبه من فرط سعادته ، فى حين كانت أمه تعيد القنينة الثمينة إلى الرف ، غير أن وجه القس شحب وهو يصوب نظره إلى خارج الباب ، وكأنه رأى شبحًا

كانت امرأة سوداء تجرى فى صمت عبر الميدان ، ووقفت المرأة عند باب الحانة ونظرت إلى داخلها بعينين سوداوين مفتوحتين ،على آخرهما ، ودخلت وهى تلهث ، كانت خادمة « آنييس » . وانسحب القسيس بحركة غريزية إلى مؤخرة الحانة فى محاولة للاختفاء عن الأنظار ، ثم عاد إلى الأمام كأنه تلقى ضربة فى ظهره ، وخُيِّلَ إليه أنه يدور حول نفسه كالنحلة . ثم تذكر أنه ليس وحيدًا ، وأن الحاضرين يرونه ، فتوقف . ولكنه أراد أنه يصم أذنيه عن الكلام الذى أرادت الخادمة أن تقوله لأم « أنطيوكو » التى بدا عليها الاهتمام وهى تستمع إليها من وراء منضدتها . كانت له رغبة واحدة ، هى الهرب ، النجاة . وتوقفت دقات قلبه ، . وصعد كل دمه إلى رأسه، وأحس بطنين فى أذنيه . ومع هذا فقد تناهت كلمات الخادمة إلى سمعه ، ونفذت إلى أعماق روحه . قالت :

ـ لقد وقعت . ونَزَفَتْ من أنفها دماً كثيرًا كثيرًا ، حتى ليبدو أن شيئاً داخل رأسها قد انجرح . واستمر نزيف الدم . أعطنى مفتاح القديسة «ماريا أجيزياكا »فهو الوحيد الذى يمكنه أن يوقف النزيف .

وجرى « أنطيوكو » الذى كان يستمع إلى هذا الحديث والصينية والكأس لا يزالان فى يده ليأخذ مفاتيح كنيسة صغيرة محطمة كان لها حقيقة ـ إذا وُضعت على ظَهْر شخص أصابه نزيف أنفى ـ خاصية إيقاف النزيف . وقال « باولو» لنفسه : « هذه تمثيلية . ليس فى هذا شىء من الصحة . لقد

أرسلت خادمتها لتراقبنى وتحاول جذبى إلى بيتها ، ومن الجائز أنها اتفقت على هذا مع هذه المرأة القوادة » . ومع ذلك كان اضطرام كيانه كله يتزايد فى داخله ، فى العمق . لا . الخادمة لا تكذب . كبرياء « آنييس » يمنعها من البوح بمكنون نفسها لأى شخص ، لاسيما إذا كان هذا الشخص خادمتها . . « آنييس مريضة بالفعل . وبدا له كأنه يراها ، ويرى وجهها الذى يقطر منه الدم . كان هو الجانى . يبدو أن شيئاً داخل رأسها قد انجرح . ورأى أم « أنطيوكو» الواقفة أمام المنضـدة ترفع عينيها بسرعة إليه وتحدجه بنظرة استغراب جانبية لعدم اهتمامه بالأمر .

ـ كيف حدث هذا ؟

وجه هذا السؤال إلى الخادمة بهدوء ، وكأنه يحاول إخفاء انشغاله عن نفسه . واستدارت الخادمة تمامًا إليه بوجه كالحٍ متحفزٍ ، أشبه بصخرة كان يخشى الاصطدام بها ، وقالت :

ـ أنا لم أكن فى البيت حين حدث هذا ، لقد وقعت هذا الصباح ، حين ذهبتُ إلى النبع ، وحين عُدت وجدتها فى حالة سيئة . كانت قد تعثرت على سلم الباب وسال الدم من أنفها . ولم يكن هذا كل ما فى الأمر ، بل كانت تعانى أيضاً من شىء كالتشنج ، وحين تركتها منذ قليل كانت أطرافها قد بردت وتصلبت ، كما أن نزيف أنفها لم يتوقف . وكررت وهى تقلب المفاتيح التى كان « أنطيوكو » قد أحضرها فى إزارها :

لهفى عليها ! نحن امرأتان وحيدتان فى البيت .

ثم سارت إلى الخارج بدون أن ترفع بصرها عنه ، وكأنها كانت تريد أن تجره وراءها بقوة نظراتها . وقالت المرأة الجالسة إلى المنضدة بصوتها الخالى من الحرارة :

ـ لِمَ لا تذهب لرؤيتها ياسيدى القس ؟

كان يعصر يديه بحركات لا إرادية . وقال :

ـ لا أدرى . . فى هذه الساعة ؟

وقالت الخادمة :

ـ تعالَ ، تعالَ . مجيئك سيسر سيدتى الصغيرة وسيحسن حالتها .

وقال لنفسه : « إنه الشيطان يتحدث بلسانكِ » ولكنه تبعها بغير وعى ، وأمسك «أنطيوكو » من كتفه وجره وراءه وكأنه يتعكز عليه . وذهب الفتى معه كلوحة خشب فى بحر هائج ، وعلى هذا النحو وصلوا إلى الميدان ، ثم صعدوا وصعدوا حتى بلغوا الأبرشية ، كانت الخادمة تجرى أمامهما ، ولكنها كانت تستدير من وقت لآخر لتنظر إلى القمر ببياض عينيها اللامعتين . كان فى سوادها وفى وجهها الداكن كالقناع شىء شيطانى . وكان « باولو » يسير وراءها وقد داخله شعور غامض بالخوف ، وخُيل إليه وهو يسير هكذا متكئاً على « أنطيوكو » أنه طوبيا الأعمى . لكنه ، حين مروا ببابه ، أدرك ـ لأن الفتى حاول أن يدفع الضلفة ـ أن أمه أغلقته . وتوقف فجأة وابتعد عن صاحبه ، وقال لنفسه « أمى قفلته كأنها كانت تعرف أنى لن أَبَرَّ بوعدى » . وقال :

ـ « أنطيوكو » ، عُدْإلى بيتك . اذهب .

وتوقفت الخادمة ثم واصلت السير ، ثم توقفت من جديد ، ورأت أن الفتى سار إلى بيته الصغير وأن القس يضع المفتاح فى قفل بابه . ورجعت إلى الوراء ، إلى أن أصبحت قبالته .

وقال لها :

ـ لن أذهب .

استدار إليها بما يشبه الوعيد ، وأمعن النظر فى وجهها وكأنه يريد أن يستشفَّ الحقيقة من خلال قناعها . وأضاف :

ـ إذا كان ذهابى ضرورة مطلقة ولابد منه فعودى واستدعينى .

وانصرفت المرأة بدون أن تيئس ، ووقف هو أمام بابه ويده على مفتاحه كما هو ، هذا المفتاح لا يدور فى القفل . إنه لا يستطيع ، لا يستطيع الدخول ، أما السير إلى حيث كان يسير من قبل فهذا أيضاً أمر لا يستطيعه . ومرت لحظات خيل إليه خلالها أن عليه أن يبقى هكذا إلى الأبد ، أمام باب مُغْلَق كان يملك مع ذلك مفتاحه .

وعاد « أنطيوكو » إلى بيته فى هذه الأثناء وأغلقت أمه الباب ، وغسل هو الكئوس ووضعها فى مكانها . وأول كأس غسله بالماء النظيف كان ذلك الذى شرب فيه القس . جفف « أنطيوكو » الكأس بعناية ، بأن أدخل فيه قماشة بيضاء حركها بسبَّابته ، ثم نظر إليه عبر ضوء المصباح بعين واحدة ، وخُيل إليه أنه من الماس ، ثم أخفاه فى غرفة الأشياء القديمة بتقوى شديدة ، وكأنه كأس القداس .

ودخل « باولو » هو الآخر بيته ، واتجه على أطراف قدميه إلى السلم المظلم . وتذكر بشكل غامض أنه حين كان طفلاً صغيراً كان يصعد هكذا متحسساً طريقه على أربع إلى أعلى سلمٍ مّا ، لا يذكر بالضبط أين كان . ومثلما كان يحدث فى ذلك الوقت كان يشعر بخطر يترصده لا قِبَلَ له باتقائه إلا إذا كان شديد الانتباه إليه . ووصل إلى بسطة السلم ثم إلى باب غرفته . لقد نجا ! ولكنه تردد من جديد فى فتح هذا الباب ، ثم استدار فجأة واتجه

إلى باب غرفة أمه ، وطرقه طرقة خفيفة بطرف سبابته . ودون أن ينتظر جوابا فتح الباب ودخل . وقال بجفاء :

ـ أنا هو . . لا توقدى المصباح . أريد أن أقول لكِ شيئاً .

وأحس بها وهى تتحرك فوق الفراش الذى أحدثت حشيته خشخشة ، ولكنه لم يكن يراها ، ولم يكن يريد أن يراها ، بل كان يريد فقط أن تتحدث روحاهما فى الظلام كما لو كانا قد انتقلا إلى العالم الآخر . وقالت الأم بصوت متقطع واجف :

ـ أنت هو ! كنت أحلم فى حفلة راقصة . . حفلة تعزف فيها قيثارة .

وناداها من جديد :

ـ أمى !

وبدون أن يعبأ بما كانت تقوله ، أضاف :

ـ اسمعى : هذه المرأة أعنى « آنييس ـ مريضة . هى مريضة منذ هذا الصباح . لقد وقعت ، ويبدو أن شيئاً فى رأسها قد انجرح ، والدم يسيل من أنفها .

ـ ماذا تقول يا « باولو » ؟ هل هناك خطر ؟

كان لصوتها فى الظلام رنة قلق ، وبدا الصوت فى الوقت ذاته غير مصدق واستطرد هو مقلدًا بدوره صوت الخادمة اللاهث :

ـ حدث ذلك هذا الصباح بعد أن تلقت الرسالة ، كانت شاحبة الوجه خلال اليوم ولم ترد أن تقرب طعاماً ، وفى المساء عاد إليها المرض . تعانى من تشنجات .

وشعر بأنه يبالغ فتوقف ، وصمتت الأم . كان هناك ـ على مدى لحظة في هذا الظلام ، وفي هذا السكون ـ سر من أسرار الموت ، كما يحدث بـ غريمين يبحث كل منهما عن الآخر في ظلمة القبر دون أن ينجح في العث عليه . ثم سمع من جديد صوت قش الحَشِيَّةِ : لابد أن الأم جلست ع الفراش ، فقد بدا صوتها الواضح وكأنه ينزل من أعلى . قالت :

ـ مَنْ يا «باولو» الذى أبلغك بكل هذا ؟ لعله غير صحيح .

وشعر هو مرة أخرى بأنها تتحدث ، وكأن الذى يتحدث هو ضميره غير أنه أجاب على الفور :

ـ ولكن لعله صحيح . المسألةليست هذه يا أماه ، المسألة هى أننى خوف من أن تقدم على عمل جنونى . إنها وحيدة بين أيدى الخدم . لابد أراها

ـ باولو ! وكرر فى شبه صياح :

ـ لامفر !

كان فى الواقع يريد أن يقنع نفسه أكثر مما كان يريد إقناع أمه . وقالت

ـ « باولو » ، لقد وَعَدْتَ .

ـ وعَدْتُ ، ولهذا بالذات أتيتُ لأراكِ . أكرر أنه لا مناص من أن أراها ضميرى يُحتم على ذلك .

ـ قل لى شيئًا يا « باولو » ، أواثق أنت من كونك رأيت الخادمة ؟ الإغر كثيرًا ما يعبث بنا . ما أكثر الأشكال التى يخفى الشيطان فيها نفسه : يفهم القس قصدها وسألها :



ـ أتظنين أنى أكذب ؟ لقد رأيت الخادمة بالفعل .

ـ اسمع : أنا أيضاً رأيت القس القديم ليلة أمس . ومنذ قليل خُيِّل إلىَّ أننى أسمع وقع خطواته .

وأضافت بصوت خفيض :

ـ ليلة أمس جلس بجوارى أمام المدفأة ، كانت لحيته غير محلوقة ، وكانت الأسنان فى فمه قليلة ، وكانت مسودة من فرط تدخينه ، وكان بحذائه ثقوب ، وقد قال لى : إنه كان علىَّ أن أعلمكَ مهنة أبيك إنْ أردت ألاَّ تقع فى الخطيئة . لقد أدخل البلبلة على قلبى يا « باولو » حتى صرت لا أعرف هل مافعلته كان خيرًا أوْ شرًّا . ولكننى مقتنعة بأن الذى كان يجلس إلى جوارى ليلة أمس هو الشيطان ، روح الشر . الخادمة التى رأيتها قد تكون شكلاً آخر من أشكال الغواية .

وابتسم فى الظلام ، ومع ذلك فإنه لا يزال يرى شكل الخادمة وهى تعود فى المرج وكأنها شبح من الأشباح . وشعر بالرغم منه برعب غامض . واستمر صوت الأم قائلا :

ـ ثم هل أنت واثق ـ إنْ ذهبتَ إلى هناك ـ من أنك لن تقع فى الخطأ ؟ حتى إذا كنت حقيقة ـ قد رأيتَ الخادمة ، وإذا كانت هذه المرأة مريضة بالفعل ، هل أنت واثق من أن قدمك لن تزل من جديد ؟

وصمتت فجأة ، وبدا لها كأنها تراه شاحباً فى الظلام ، وأشفقت عليه ، لِمَ تمنعه من العودة إلى هذه المرأة ؟ ماذا إذا لقيت حتفها حقًّا من الألم ؟ ماذا إذا مات هو نفسه من الألم ؟ وأحست بنفس اللهفة والضياع اللذين أحس هو بهما فيما يتعلق بمصير « أنطيوكو » ، وتنهدت وهتفت :

ـ ياإلهى !

وتذكرت أنها سبق أن أسلمت أمرها للرب ، هو وحده القادر على حل مشكلاتنا . ودق قلبها دقات مَنْ سُرِّىَ عنه ، وكأنها هى التى حلت مشكلتها . ولكن . . ألم تحلها بالفعل حين أسلمت أمرها للرب ؟ واستدارت لكى تخلد إلى الفراش ، ولكن بدون أن تتمدد عليه . وتحدثت ، وكان صوتها هذه المرة فى مستوى صوت ابنها :

ـ إذا كان ضميرك يملى عليك أن تذهب ، فما الذى جعلك لا تذهب إليها رأساً قبل أن تحضر إلى هنا ؟

وقال بأسى :

ـ لأنى وعدتك ، ولأنكِ هددت بأن ترحلى إنْ أنا عدتُ إلى ذلك البيت . لقد أقسمت .

وكان يصيح :

ـ أرغمينى يا أمى على احترام قسمى !

ولكنه عجز عن ذلك . وقالت :

ـ إذن اذهبْ . افعلْ ما يمليه عليك ضميرك .

عندها قال وهو يقترب من الفراش :

ـ لا تشغلى بالك .

وبقى لحظات بدون حراك ثم ساد الصمت من جديد . خامره شعور غامض بأنه واقف أمام مذبح ، وأن أمه تحتل مكاناً عالياً كصنم تحفه الأسرار ، وتذكر أنهم فى معهد الكهنوت كانوا ـ حين كان شابًا ـ يضطرونه

بعد الاعتراف إلى تقبيل يدها . وامتلأت نفسه الآن بما كانت تمتلىء به وقتها من اشمئزاز . شعر بأنه كان وحده ، ولو لم تكن هى بجانبه الآن لكان قد عاد إلى « آنييس » للهَرَب من كل ما لقيه هذا اليوم من جهد وكَدٍّ وصراع . لقد كانت أمه تكبح جماحه ، وهو لم يكن يدرى أكانت تستحق شكره على ذلك أم لا . قال لها : « لا تشغلى بالك » ، ولكنه كان فى الوقت ذاته يرغب ويخشى أن تمضى فى الحديث ، أو أن توقد المصباح لتحملق فى عينيه وتقرأ فيهما كل أفكاره وتأمره بألاَّ يذهب . وظلت هى لا تتحرك ولا تتحدث . ثم خشخشت الحشية من جديد ، وفهم أنها تمددت فى فراشها .

وذهب . أدرك أنه فى النهاية ليس وضيع النفس . ذهب لا عن غير وعى ولا مدفوعاً بالهوى ، بل لأنه شعر فى ضميره أنه قد يكون هناك خطر لابد من التغلب عليه ، وأن مسئولية هذا الخطر إنما تقع على كاهله .

ورأى بين أعشاب المرج ذات اللون الفضى الأسود شبح الخادمة التى عادت . ونظرت إليه بعينيها اللامعتين وقالت :

ـ سيدتى الصغيرة ستتشجع إنْ أتيت .

وبدا له أن نهاره كله ـ نهار الهرب ـ كان مضحكاً وخسيساً . إن واجبه هو هذا : أن يذهب إليها ويشجعها . وأحس بخفة تشبه السعادة وهو يعبر المرج الغض الذى كساه القمر بلون الفضة ، وبدا له أنه فراشة ليلية كبيرة يجتذبها الضوء . وامتزجت فى نفسه هذه الفرحة ، فرحة رؤية « آنييس» بعد دقائق معدودة ، بفرحة الواجب الذى يفرض عليه أن يذهب لإنقاذها . وغسلت نعومة عشب المرج ورقة ضوء القمر روحه ، وأعطياها لوناً أبيضَ ، وغطياها ـ عبر ملابسه السوداء سواد الموت ـ بما يشبه الندى .

« آنييس » السيدة الصغيرة : أجل ،كانت صغيرة ، مهيضة الجناح كطفلة ، وحيدة ، يتيمة الأب والأم ، فى متاهة الحجارة بيتها المدلهم هذا . وقد أساء هو إليها : أخذها فى يده كما يؤخذ العصفور من العش ، وظل يضغط عليها حتى أخرج الدم من جسمها .

واستحث خطاه . لا ، لم يكن وضيع النفس . وتعثرت قدمه على أولى درجات السلم المؤدى إلى بيتها ، وخُيل إليه أن حجر عتبتها ذاته يصده . ثم صعد الدرجات الواحدة بعد الأخرى ، ورفع السقاطة الباردة ثم تركها تسقط فى تردد . وشعر بما يشبه المهانة لأنهم تأخروا فى فتح الباب . وماكان شىء فى العالم يمكن أن يحمله على معاودة الكَرَّة . وأخيرًا أضاء الجزء الزجاجى فى أعلى الباب ، وجاءت الخادمة السوداء وفتحت الباب وأدخلته فورًا إلى الغرفة التى كان يعرفها حق المعرفة . كان كل شىء كما عهده فى الليالى السابقةحين كانت « آنييس » تدخله خلسة من البستان . وكان الباب المؤدى إلى البستان مفتوحاً نصف فتحة ، ومن شق الفتحة كانت تدخل روائح الأشجار التى غسلها القمر .

وبدت رءوس الخنازير البرية والوعول المحنطة ، على الجدران مُضَاءَة بنور المصباح الثابت ، مشرئبة لمراقبة ما يجرى فى الغرفة بأعينها الزجاجية السوداء اللامعة . وكان الباب المؤدى إلى الغرف الداخلية مفتوحاً على غير عادة على مصراعيه . وخرجت الخادمة من هذا الباب ، وكان لوقع خطواتها على خشب الأرضية صوت مسموع . ثم ساد السكون ، وفجأة قُفِلَ باب بعنف كأن دفعة من الريح أغلقته ، وترتب على الصدمة أن بدت الأرضية وكأنها تتماوج ، وبدا البيت كله كأنه يهتز . واستبدت به اللهفة فى اللحظة التالية حين أبصر وجه « آنييس » الشاحب وقد خططته خصلات من الشعر

الأسود « الهايش » يظهر من ظلام الغرفة كوجه امرأة غريقة . ولكن شخصها الصغير ما لبث أن بدا فى نور الغرفة ، وتنفس الصعداء . وأوصدت » آنييس » الباب وراءها واستندت إليه بظهرها منكسة الرأس ، وبدا كأنها توشك على الانزلاق والوقوع على الأرضية الخشبية . وتقدم منها بخطوة واجفة ومدَّ يده ، ولكنه لم يجرؤ على لمسها .

ـ كيف حالُكِ ؟

وجه هذا السؤال بصوت خافت كما فى اللقاءات السابقة ، ثم أضاف :

ـ «آنييس » .

وبعد لحظة من الصمت الوجل ، فإنها لم ترد على ندائه ، بل كانت ترتجف كلها ، وقد أسندت يديها وراءها على الباب لكيلا تقع .

ـ لابد أن نتجلد .

ولكنه ـ كما حدث حين قرأ الإنجيل على الفتاة التى تقمصها الشيطان ـ شعر بأن لكلماته نبرة نشاز . وأرخى عينيه ، فى حين رفعت هى عينيها اللتين كانتا لا تزالان زائغتين ، برغم بريقهما الذى اختلط فيه الاحتقار والفرح .

ـ مالذى جاء بِكَ إذن ؟

ـ قالوا لى : إنكِ مريضة .

ونصبت قامتها بأَنَفَةٍ ورفعت بيديها خصلات الشعر التى كانت تخفى وجهها كالحجاب وقالت : ـ أنا بخير ، ولم أرسل أحدًا لاستدعائك .

ـ أعلم ذلك ، وقد جئت بالرغم من هذا . لم يكن هناك سبب يمنعنى من الحضور . أنا مسرور لأن خادمتك بالّغَتْ ، وأنك بِخير .

ـ لا

قالتها بإصرار وهو يتحدث . وأضافت :

ـ أنا لم أرسل فى استدعائك وما كان يجب أن تحضر . ولكن ما دمت هنا . . مادمت هنا ، فخبرنى : لِمَ فعلتَ هذا ؟ لِمَ؟ لِمَ؟

وقطعت أنَّاتُ حَرَّى كلامها ، وعادت تتمنى ، وحاولت يداها أن تبحثا عن شىء تتشبثان به . وانتابه الذعر وندم لحضوره . وأخذها من يدها وقادها إلى الأريكة . . الأريكة التى كانا يجلسان عليها فى الليالى الأخرى . وأجلسها على الركن الذى كان وَزْنُ باقى نساء أسرتها قد حفر فيه ما يشبه التجويف ، وجلس إلى جوارها ، ولكن بعد أن ترك يدها ، كان يخشى أن يلمسها ، وبدت له كأنها تمثال هَشَّمَهُ هو ثم أعاد تركيب أجزائه . وَأن هذا التمثال يبدو أمامه وكأنه لم يُمَسّ ، ولكنه قابل لأن يتحطم إلى شظايا لأقل ضربة ، لهذا السبب كان يخشى أن يلمسها . وقال لنفسه :

«هكذا أحسن ، قد نجوت ! » . ولكنه كان يشعر فى الواقع أن احتمال ضياعه من لحظة لأخرى لا يزال قائماً ، وأن هذا هو السر فى أنه كان يخشى لمسها . وأمعن إليها النظر تحت الضوء المباشر المنبعث من المصباح ، فرآها مختلفة عَمَّا عَهِدَهُ : فمها تهدل ، وبشرة شفتيها بلونها الوردى المائل إلى الرمادى ذكرته بأوراق الورد الذابلة ، وشكل وجهها البيضاوى استطال ، وبرزت وجنتاها تحت عينين أحاطت بهما دائرتان سوداوان . لقد زاد عمرها فى يوم واحد من العذاب عشرين سنة . ولكن شيئاً طفوليًّا كان لا يزال ظاهرًا فى تعبير الفم المرتجف فوق الأسنان المنُقبضة لمقاومة البكاء ، وفى اليدين الصغيرتين اللتين جذبت إحداهما ـ تلك التى تركت عليلة على قماش الأريكة الغامق ـ يده . وأَحَسَّ أنه غير قادر على أخذ هذه اليد الصغيرة

الكسيفة ليعيد فى الحال شبك سلسلة حياتها المغصوبة . وتذكر كلمات الرجل الذى تقمَّصته الشياطين للمسيح :

ـ « مالى ولك؟ »

واستأنف الحديث وهو يضغط بإحدى يديه على الأخرى كأنه يريد أن يمنعهما من أخذ يديها ، ولكنه استمر فى سماع نغمة النشاز التى كانت تتخلل كلماته . وكما حدث هذا الصباح فى الكنيسة ، ولدى قراءة الإنجيل ، وحين دفع بالمزاد الأخير للصياد العجوز ، كان يعرف أنه يكذب . قال :

ـ استمعى إلىّ ، يا « آنييس » : ليلة أمس كنا على حافة الهاوية . الرب تركنا لمصيرنا فانحدرنا إلى الهاوية . أما الآن فقد أخذنا الرب من يدنا من جديد ، وهو يهدينا إلى الصواب . يجب أن نظل فى العلو ، يا « آنييس » . «آنييس » . .

كرر نداه ونطق اسمها من أعماق فؤاده وأضاف :

ـ أتعتقدين أننى لا أتعذب ؟ يُخيل إلىّ أننى دفنت حياً ، وأن عذابى سيستمر إلى آخر الزمن ، ولكن ليس لنا فى الأمر حيلة. لمصلحتك ، لخلاصك ، استمعى إلىّ يا « آنييس » : تَجَلَّدِى للحب ذاته الذى جمع بين قلبينا ، وللخير ذاته الذى قدمه لنا الرب حين عرضنا لهذه المحنة . ستنسيننى ، ستشفين ، أنت فى ميعة الصبا والحياة ، لا تزال الحياة أمامك كاملة لم تُمَسَّ . سيبدو لك وأنت تذكريننى أنكِ رأيتِ حُلماً مزعجاً . وأنَّك ضللت الطريق فى الوادى والتقيت بمخلوق مؤذٍ أراد بكِ شرًّا ، ولكن الرب نجَّاكِ ؛ لأنك تستحقين السلامة . كل شىء يبدو لكِ الآن شيئاً ، ولكنك سَتَرِينَهُ غير ذلك بعد قليل . سيعود كل شىء واضحًا ، وستشعرين بكل

الخير الذى أقدمه لكِ الآن ، إذ أُسبب لك بعض الألم الوقتى ، كما يفعل الطبيب مع مريض يقتضى علاجه أن يقسو عليه .

ولم يكمل حديثه ، فقد طغى عليه شعور بالبرد الشديد . كانت الحياة عادت إلى « آنييس » من جديد ، فشدت نفسها فى ركنها ، وحدقت فيه النظر بعينيها اللتين بدتا ـ إلى حد ما ـ زجاجتين كعيون الوعول المثبتة على الجدران، وتذكر أعين النساء فى الكنيسة وهو يلقى الموعظة . وبدا على «آنييس » أنها تنتظر أن يستمر فى الكلام . وكان فى هيئتها ما يوحى بأنها أخذت نفسها بالصبر والتسامح ، ولكن كان من الواضح أن هذا التعبير كان معرضاً للزوال لدى أقل صدمة . وحين رأت أنه توقف عن الكلام قالت بصوت واهن وهى تهز رأسها بالرفض :

ـ لا ، إن الحقيقة غير ماقلت .

واتجه نحوها بوجهٍ ملهوف وسأل :

ـ ماالحقيقة إذن ؟

ـ لم لَمْ يكن هذا حديثك ليلة أمس والليالى الأخرى ؟ لأن الحقيقة وقتها كانت شيئاً آخر . الذى حدث أن شخصًا مًّا اكتشف أمرك . أمك مثلا ، وأنك تخشى الناس . ليست خشية الرب هى التى تحملك على تَرْكِي .

وأحس برغبة فى الصياح ، فى ضربها . وأمسك بها ولوى معصمها الدقيق لبعض الشىء ، ووَدَّ لو لَوَى كلامها وأوقفه بنفس الصورة . ثم ارتد إلى الوراء ونهض وهو يقول :

ـ لنفرض أنك مُحِقَّة ، ألا يعنى هذا شيئاً فى نظرك ؟ أجل ، أمى اكتشفت كل شىء وحدثتنى وكأنها ضميرى ذاته . وانتِ ، أنتِ ، أليس

للكِ ضمير ؟ أنحن فى نظركِ فى حِلٍّ من الإساءة إلى مَنْ تتوقف علينا حياته ؟ رغبتكِ كانت أن نهرب ، وأن نعيش معًا ليس فى ذلك بأس إذا كان من المستحيل أن يكف أحدنا عن محبة الأخر ، ولكن هناك أشخاص يعرضهم هروبنا وخطيئتنا للهلاك ؛ ولذلك فليس أمامنا إلاَّ أن نضحى بأنفسنا من أجلهم .

كان من الواضح أنها لم تستمع مِمَّا قال إلاَّ إلى عبارات متفرقة . واستمرت فى تحريك رأسها بما يفيد عدم الموافقة ، وقالت :

ـ تتحدث عن الضمير ؟ أنا أيضاً لى بالطبع ضمير بأنى لم أعد طفلة . وضميرى يقول لى : إننى أخطأت حين استمعتُ إليك ، وحين استقبلتُك فى بيتى . ولكن مالعمل الآن ؟ نحن أمام أمر لا يمكن تداركه . لِمَ لَمْ يُنِر الرب بصيرتك من قبل ؟ هل أنا التى ذهبت إلى بيتك ؟ أنت الذى جئت إلى بيتى وأخذتنى كما تؤخذ طفلة تلهو ! ما العمل الآن ؟ قل لى : ما العمل ؟ ليس بوسعى أن أنساك . ليس بوسعى أن أتبدل كما تبدلت أنت . ومهما يكن من أمر فإنى أريد أن أترك هذا المكان ، حتى إذا لم ترافقنى أريد أن أسلو . أن أبتعد من هنا ، وإلا ...

ـ وإلا . . ؟

ولم تُجِب «آنييس » وقبعت فى ركنها بأطراف مرتعشة . ثمة شىء مظلم : جناح الجنون الأسود بدا أنه مسها ، فقد غامت عيناها ، وأتت يدها بحركة غريزية كأنها تطرد بها ظِلاًّ لاحَ لها . وعاد هو يتمتم عليها ، وكاد ينكفىء على الأريكة ويمزق خيوط قماشها القديم ، وخُيل إليه أنه يحك حائطًا ظهر أمامه وأزهق أنفاسه . لم يعد باستطاعته أن يتحدث . أجل ، هى محقة ، الحقيقة ليست ما كان يحاول أن يلقيه فى روحها . الحقيقة هى هذا الحائط

الذى يزهق أنفاسه والذى لا قِبَلَ له بتحطيمه . ووثب وقد استخوذ عليه شعور حقيقى بالاختناق ، وكانت هى التى أمسكت هذه المرة يده وضغطت على أصابعه بأصابعها التى أصبحت أشبه بكلاَّبة . وغمغم :

ـ رَبَّاه !

وغطى عينيه بيده الأخرى . وأضافت ـ الرب ما كان ينبغى أن يهيىء لنا فرصة الالتقاء إذا كان مصيرنا أن نفترق . أنت إذا كنت قد عدت هذا المساء فلأنك ما زلت تحبنى . . أتحسب أنى أجهل ذلك ؟ أنا أعلم كل شىء . هذه هى الحقيقة .

ورفعت وجهها نحوه بشفتين مرتجفتين ، ورموش ترف بين أصابعها وقد امتلأت بالدموع . ورأى ما يشبه اختلاجات مياه عميقة تبهر وتجذب فى هذا الوجه الذى لم يعد وجه المرأة ولا وجه « آنييس » ، ولكن وجه الحب ذاته . وجلس من جديد إلى جانبها وقبل ثغرها . وبدا له حقيقة أنه يهوى ببطء ، مجذوباً بدوامة إلى عمق سائل مضىء فى مكان مَّا تحت الماء ، ألوانه التى تشبه ألوان قوس قزح تُوَلِّد الدوار . ثم صعد إلى السطح وفصل فمه عن فمها ، وألقى نفسه كالغريق على رمال الشاطىء ، مضعضعَ القوى ، موزعًا بين الرعب والفرح ، ولكن برعب أكبر من الفرح . والسحر الذى بدا له أنه تبدد إلى الأبد ـ والذى كان أكثر رواء لهذا السبب بالذات ـ عاد إلى الوجود . وشعر من جديد بأنفاسها وهى تقول :

ـ أتعرف ؟ أتعرف ؟ كنتُ أعلم أنك ستعود . لم يكن يريد أن يسمع شيئاً آخر . كما لم يكن يريد أن يسمع شيئًا آخر فى بيت «أنطيوكو » حين تحدثت الخادمة . ووضع يده على فمها ، فى حين أسندت هى رأسها على كتفه ، ثم مر بأصابعه بخفة على شعرها الذى كساه انعكاس نور المصباح

لوناً ذهبيًّا . هاهى ذى إذن ـ برغم صغر حجمها واستسلامها ـ تملك قدرة مريعة على جذبه إلى أعماق البحر ، وعلى رفعه إلى أجواز السماء ، وعلى أن تصنع منه كائناً بلا إرادة . وتعرف أنه سيعود .

ـ أتعرف ؟ أتعرف ؟ . .

وحاولت أن تواصل الحديث . . وجرت أنفاس فمها حول عنقه كالأنشوطة ووضع يده من جديد على فمها ، وضغطت هى بيدها على يده بقوة ، وظلا هكذا فى صمت وفى انتظار . ثم تمالك نفسه وحاول أن يسترد سيطرته على مصيره . أجل ، لقد عاد ، ولكن الذى عاد ليس الشخص الذى كانت فى انتظاره . وظل ينظر إلى شعرها الذهبى ، ولكن كشىء بعيد . كاختلاج البحر المتألق الذى نجا منه . وتمتم :

ـ أنتِ الآن مسرورة . هأنذا قد عدتُ وأنا ملكك مدى الحياة . فأرجو أن تهدئى روعك . لقد سَبَّبْتِ لى خوفاً لا يوصف خوفاً رهيباً . لا تجزعى ، ولا تُوقفى ـ تحت أى ظرف ـ خَطَّ حياتك . أنا لن أتسبب لَكِ فى ألم ، ولكن عدينى أن تكونى عاقلة ولطيفة كشأنك الآن .

وشعر بيديها ترتجفان وتتململان بين يديه ، وفهم أنها بدأت تتمرد من جديد . وضغط عليها بقوة ، وتمنى لو أمكنه أن يُبْقِىَ روحها جياشة بنفس الصورة . وقال :

ـ يا « آنييس » الطيبة ، استمعى إلىّ . أنتِ لا تتصورين أبدًا كم تعذبتُ اليوم ، ولكن لم يكن من ذلك مفر . لقد نزعت من ظهرى كثيرًا من القشور الذميمة حتى أدميتُ نفسى ، وأنا الآن هنا ملكُ لَكِ . أجل ، كما أراد الله أن أكون ملكك بكل وجدانى . انظرى !!

قال ذلك ببطء وتوجع ، وكأنه يستخرج الكلمات من أعمق أعماقه ويدفع بها إليها . وأضاف :

ـ يُخيل إلَّى أنَّ كُلَّ واحدٍ مِنَّا أحبَّ الآخر منذ سنوات وسنوات ، وأن أحدنا تمتع كل متعة وتعذب كل عذاب بالآخر ، حتى الكراهية ، حتى الموت . وكل عواصف البحر ، بل كل ما يحفل به من حياة عنيدة إنما يضطرم فى داخلنا . لقد تصارعنا وتصارعنا ـ ومازلنا ـ داخل نفسينا ولم نُرحَم . « آنييس» ، يارفيقة روحى ، أى شىء تريدين منى أكثر مما أستطيع أن أُعطيكِ إيَّاه : روحى ؟

وصمت فجأة ، وشعر أنها لا تعى ما يقول . هى لا يمكن أن تفهم . ورآها تزداد ابتعادًا عنه ، كابتعاد الحياة من الموت ، ولكنه أحس ، لهذا السبب بالذات ، أنه لا يزال يحبها ، بل لا يزال متيماً بها كالحياة التى تموت .

ورفعت رأسها ببطء ، وبحثت بعينين ـ عادتا عدوتين ـ عن عينيه وقالت :

ـ أنت الذى يجب أن يُصغِىَ إلىَّ . لا تُخادِعْنِى أكثر من هذا . ألن نرحل من هنا كما اتفقنا ليلة أمس ؟ معيشتنا هنا على هذا النحو شىء مستحيل . أنا أعرف ذلك ، أعرفه !

ثم أردفت بعد لحظة من الصمت الأليم :

ـ إذا كان مقدراً لنا أن نعيش معاً فلنغادر هذا المكان على الفور ، هذه الليلة بالذات . أنا ـ كما تعلم ـ ميسورة الحال ، وعندى مال ، أمك وإخوتى والكل سيلتمسون لنا العذر فيما بعد ، حين يرون أنا أردنا أن نعيش فى الحقيقة ، أمَّا أن نستمر فى العيش هكذا فهذا شىء لم يعد ممكناً .

ـ آنييس » !

ـ أجبنى فورًا ودع باقى الكلام .

ـ أنا لا أستطيع الهروب معك .

ـ لِمَ عُدْتَ إذن ؟ دَعْنِى . اذهب !

ولم يدعها . كان يشعر بأنها ترتجف بكيانها كله . كان خائفاً منها . ولأنه رآها تنحنى على يديها المشتبكتين خُيل إليه أنها تريد أن تعضه . وقالت بإصرار :

ـ اذهب ، اذهب . لست أنا التى أرسلت فى استدعائك . إذا كان علينا أن نتجلد ونكون أقوياء فما الذى أرجعك ؟ لِمَ قَبَّلْتَنِى من جديد ؟ إذا كنت تظن أنك تستطيع أن تغرر بى فأنت واهم . وإذا كنت تظن أنك تستطيع أن تأتى إلى هنا ليلاً ثم أن تكتب لى فى الصباح خطابات مهينة فأنت واهم . كما عدت . . كما عدت هذه الليلة ستعود اللية القادمة ، ثم كل ليلة بعدها ، وستنتهى بأن تدفعنى إلى الجنون . أنا أرفض ذلك . أرفضه . يجب أن نكون أطهارًا أقوياء كما تقول .

وغشى وجهها التراجيدى الذى شاخ شحوب كشحوب الموتى ، واستطردت :

ـ الآن فقط تقول هذا الكلام ! أنا لا أطيق النظر بإليك ، اغرب عن وجهى ، أغرب عن وجهى . اذهب بعيدًا . هذه الليلة بالذات لكيلا أنتظرك بعد الآن حين استيقظ وأذوق الويل فى انتظارك ، وفى تَحَمُّلِ هذه الإهانة .

وهتف وهو ينحنى فوقها

ـ رباه ، رباه !

ولكنها صدته واستمرت تقول :

ـ أتحسب أنكَ تُحَدِّثُ طفلة ؟ أنا عجوز هدمت بفعلك فى ساعات معدودة طريق الحياة المستقيم ! أهو أن نستمر فى علاقتنا هكذا ، فى خفية عن الأعين ؟ أهذا ما تقصد ؟ أن أجد لى زوجاً ، وأن أحتفل أمامك بزفافى ، واستمر فى رؤيتك وأخدع الجميع بقية العمر ؟ اذهب ، اذهب . أنت لا تعرفنى إذا توهمت ذلك . أنت قلت لى ليلة أمس : « أجل ، لنرحل من هنا . سأجد عملا ، وسنتزوج » ألم تقل ذلك ؟ ثم تعود إلىَّ الليلة وتحدثنى عن الرب وعن التضحية . فلنفضها سيرة ، ولينتهِ ما بيننا ، ليذهب كُلٌّ منا لحال سبيله . ولكنك ـ أكرر ـ يجب أن ترحل من هذه البلدة الليلة ، ماعدت أريد أن أرى وجهك ، وإذا احتفلت بالقداس صباح الغد فى كنيستنا فسآتى وأقول للناس : قديسكم هذا يصنع المعجزات فى النهار ، فإذا ماجَنَّ الليل ذهب إلى الفتيات الوحيدات لِيُغَرِّرَ بهن .

وحاول أن يسد فَاهَا بيده ، ولكنها استمرت تقول : « اذهب ، اذهب . » وأمسك برأسها وضغطها على صدره ، ونظر فى هلعٍ تجاه الباب المقفل ، وتذكر كلمات الأم والصوت الذى تردد محفوفًا بالأسرار فى الظلام « القسيس القديم جلس إلى جوارى وقال لى سأطردكما عمَّا قريب أنتِ وابنك من الأبرشية » .

ـ «آنييس » ، أنتِ تَهْذِين !

هتف بهذا ويده فوق عنقها . فى حين كانت هى تحاول أن تتخلص من قبضته . وقال :

ـ هَدِّئى روعك . استمعى إلىّ . لم يضع كل شىء . ألا تشعرين أنى أحبك ألف مرة أكثر من ذى قبل ؟ لن أذهب . لا ، أريد أن أبقى بجوارك لكى أنقذك ، لأقدم إليك روحى كما أقدمها إلى ربى ساعة الموت . أنت لا تدرين شيئاً مما تحملته من عذاب من ليلة الأمس إلى هذه الساعة . لقد هربتُ ، ولكننى أخذتُكِ معى . هربت كشخص علقت النار بظهره ، فجَرى وهو يحسب أنه ينجو منها ، وإذا بلهيب النار يحيط به أكثر وأكثر .

مامن مكان إلا ذهبت إليه ، وما من شىء إلا فعلته لكيلا أعود إلى هنا ، فماذا كانت النتيجة ؟ هٰأنذا أمامك ، يا « آنييس » . كيف لى ألاَّ أكون هنا ؟ أتسمعيننى ؟ أنا لا أخونُكِ ولا أنساكِ ، ولا أريد أن أنساكِ ، ولكن علينا أن نبقى طاهرين يا «أنييس » أن نحتفظ بحبنا للأبد ، أن نمزجه بأفضل ما فى الحياة ، بالألم ، بالتضحية ، بالموت ذاته ، هكذا مع الرب . أتفهمين هذه الأشياء يا «آنييس ؟ أجل ، أنتِ تفهمينها جيدًا .

ودفعته ، وبدا كأنها تريد أن تحطم صدره برأسها ، إلى أن تمكنت من التخلص منه ورَفَعَتْ قامتها من جديد ، وشعرها الأملس يلتف كالأشرطة بوجهها القاسى . وبدت بفمها المغلق وجفنيها المُسْبَلَيْنِ كأنها نامت فجأة نوماً صعباً مملوءًا بأحلام الانتقام . وأحس بخوف من هذا الصمت ومن هذا السكون أكثر من خوفه من كلامها المجنون ومن تشنجاتها . وأخذ يديها فضغط عليهما بين يديه .

ـ آنييس » ، أما تَرَيْنَ أنكِ تعترفين بأنى على حق ؟ ثُوبِى إلى رشدك . اذهبى الآن واستريحى ، وغدًا تبدأ بالنسبة للجميع حياة جديدة . سيرى أحدنا الآخر كلما شئت . سأكون صديقاً وأخاً لك . سيأخذ أحدنا بعضد

الآخر . حياتى لكِ . تصرفى فىَّ كما تشائين . سأكون لَكِ حتى ساعة الموت، بل بعد ذلك ، حتى الأبد .

وأثارتها لهجة التوسل هذه من جديد . ولوت يديها بين يديه قليلاً ، وحركت شفتيها لتتحدث وقد أخلى سبيلها . ووضعت يديها فى حجرها وحنت رأسها . كان كل شىء يؤلمها ولكنه الآن ألم ثابت يائس ارتسم على محياها . واستمر ينظر إليها وكأنه ينظر إلى شخص يودع الحياة . وزاد قلقه، فانزلق عند قدميها ووضع جبهته على ركبتيها وقبل يديها . لم يعد يهمه أن يراه أو يسمعه أحد . كان جاثياً هناك عند قدمى المرأة ، وألمها كالمسيح الممدد فى حجر أمه . وخُيل إليه أنه لم يشعر فى حياته بأنه فى مثل هذا الطهر، بأنه ميت فى الحياة الدنيا ، ومع ذلك كان خائفاً . وظلت « آنييس » بلا حراك ، بيدين باردتين ، لا تحسان بهذه القبلات ، قبلات الموت . ونهض هو وعاد يكذب :

ـ شكرًا لك يا «أنييس» . كل شىء الآن على مايرام . شد ما أنا مسرور؛ لأننا اجتزنا المحنة ! اهدئى الآن نفساً . إنى ذاهب .

وأضاف بصوت خافت وهو ينحنى :

ـ غدًا ستأتين إلى القداس ، وسنقدم معاً قرباناً للرب .

وفتحت عينيها ونظرت إليه ثم أغمضتهما من جديد . وبدا أنها جرحت فى مَقْتَل ، وأن عينيها قد انفتحتا للمرة الأخيرة بتوسل وتهديد قبل أن تُغمضا إلى الأبد .

ـ سترحل هذه الليلة إلى مكان بعيد فلا أراكَ أبدًا بعد الآن .

قالت ذلك وهى تـضغط على مقاطع الكلمات . ورأى هو ـ على الأقل

فى تلك اللحظة ـ أن من العبث مقاومة مثل هذه القوة العمياء . وغمغم :

ـ أنا لا أستطيع الرحيل على هذا النحو . فى صباح الغد سأحتفل بالقداس وستأتين أنت لسماعه ، وبعدها ـ إذا لم يكن هناك بد من ذلك ـ فسأرحل .

ـ سآتى صباح الغد وسأتهمكَ أمام الملأ .

ـ إنْ فعلتِ فسيكون فى ذلك علامة على أن هذه هى مشيئة الرب . ولكنك لن تقدمى على هذا يا ( آنييس ) . امقتينى إنْ أردتِ ، ولكننى أتركك فى سلام . وداعاً .

ولكنه لم يذهب . ونظر إليها مشدودًا من علٍ . وأيقظ شعرها الناعم اللامع حتى فى الظلام ، شعرها الجميل الذى كان مولعًا به ، والذى جذبته راحتا يديه مرات لا تحصى فى شغفة ، وبدا له كضمادات سوداء تضمد بها جراح رأسها . وناداها مرة أخيرة !

ـ «آنييس » ، أمن الممكن أن يكون فراقنا بهذه الصورة !

ثم أضاف :

ـ أعطِنِى يَدَكِ . قومى ، افتحى لى الباب .

وقامت وبدا أنها تطيعه ، لكنها لم تمد إليه يدها ، بل اتجهت رأساً إلى الباب الذى جاءت منه ، وهناك وقفت تنتظر . وسأل نفسه : « ما الذى أستطيع أن أفعله ؟ كان يعرف تمامًا أنه ليست هناك إلا وسيلة واحدة لتهدئة تأثرتها : أن يرتمى عند قدميها ويرتكب الخطيئة ، ويلقى بنفسه وبها فى التهلكة ، ولكنه لم يعد يريد ذلك .

وظل واقفاً فى مكانه وخفض عينيه ليهرب من نظراتها . وحين عاد إلى رَفْعِهما كانت قد غادرت المكان ، اختفت ، ابتلعها ظلام بيتها الذى يخيم عليه السكون . ومن أعلى الجدران كانت أعين الخنازير الوحشية والوعول الزجاجية تبدو وكأنها تنظر إليه بأسًى ، وبسخرية أيضاً . وفى لحظة الانتظار هذه بقى وحيدًا فى الغرفة الكبيرة الحزينة ، شاعرًا بكل تعاسة وكل هوانٍ ، وبدا له أنه لِصٌّ وأسوأ من لص . . إنه ضيف يسرق مضيفه منتهزًا فرصة خلو البيت من المُضِيف وخفض عينيه من جديد ليهرب أيضاً من نظرة الرءوس المثبتة على الجدار ، ولكنه لم يتردد لحظة . ومع أن صيحة الموت التى أطلقتها المرأة قد ملأت بالمقت صمت البيت فإنه لم يندم على أنه مدها وانتظر دقائق أخرى ، ولكن أحدًا لم يظهر ، وبدا له أنه واقف فى وسط العالم الميت ، عالم أحلامه وأخطائه ، فى انتظار من يأخذ بيده ويخرجه منه . لم يظهر أحد .

عند ذاك اتجه إلى باب الحديقة ، وعبر الممر الذى يحاذى الجدار تحت ظل أشجار التين ، وخرج من الباب الصغير الذى كان يعرفه حق المعرفة .

هاهو ذا من جديد يصعد سلمَ مسكنه المظلم ، ولكن بعد أن تغلب على الخطر ، أو تغلب ـ على الأقل ـ على خشيةالخطر . وتوقف أمام باب الأم مستحسناً أن ينهى إليها فورًا نبأ نجاح لقائه مع « آنييس » ، وما هددت به ، ولكنه سمع شخيرها ، وعدل عن إيقاظها . كانت نائمة لأنها وثقت فيه ، وشعرت أنه فى أمان .

فى أمان نعم . . وأجال البصر حوله فى غرفته وكأنه قد عاد من رحلة محفوفة بالمَكارِه . كان كل شىء مرتباً وهادئاً . وبدأ يخلع ثيابه وهو يتحرك على أطراف أصابعه ، وآلَى على نفسه ألاَّ يخل بعدها أبدًا بهذا النظام ، أو

يعكر صفو هذا السكون . . ها هي ذي ملابسه مدلاة من المِشْجَب ، اسْوَدَّ لونُها على الحائط ، وغطاء رأسه مُعَلَّق فى قمة المشجب فوق مسمار دقيق من الخشب مندفع إلى الأمام ، وها هما ذان ـ الجبة وغطاء الرأس ـ يبدوان مسترخيين من شدة التعب كأنهما الشبح الأسود والفارغ الذى نزع عنه مَصَّاصُ الدماء لَحْمَهُ وشرب بدمه . . إنَّ هذا يُورِثُه مايشبه الخوف . . وبدا له أنه ظِلُّ الخطأ الذى تحرر منه ، والذى ينتظره ليصحبه فى اليوم التالى من جديد ، ثم تنبه برعب بعد لحظة إلى أنه وَقَعَ من جديد فى الكابوس . هو لم ينجح بعد ، بل لابد من عبور ليلة أخرى كشوط أخير فى بحر هائج .

كان مُتْعَباً ، مُضَعْضَعَ القوى ، مُثْقَلَ الجَفْنَيْن ، ولكنَّ فزعاً لم يَدْرِ كُنْهَهُ مَنَعَهُ من إلقاء نفسه على الفراش ، أو حتى من الجلوس والتماس الراحة بصورة من الصور . واستمر يتجول هنا وهناك فى الغرفة ، وتشاغل بعمل أشياء تافهة غير معتادة ، وفتح الأدراج دون أن يُحدث صوتاً ليرى ما بداخلها . وحين مَرَّ بالمرآة نظر فيها فطالعه وجهه ، رمادى اللون ، بشفتين ممتقعتين ، وعينين غائرتين ، وقال لصورته : « أُنْظُرْ إلىَّ جيدًا ، يا « باولو » ، وابتعد قليلا لكى ينعكس ضوء المصباح بوضوح أكبر على المرآة . وابتعد الشكل الذى فى المرآة بدوره ، وكأنه يريد أن يهرب منه . وصوب نظره إليه وداخله إحساس غريب : بدا له أن « باولو » الحقيقى هو هذا : « باولو» الذى لا يكذب ، والذى يكشف بشحوب وجهه عن كل الخوف الذى يخامره مما سيأتى به الغد ، وقال لنفسه : « ما جدوى التظاهر أمام نفسى بهدوء لا أشعر به ؟ يجب أن أنفذ إرادتها وأرحل هذه الليلة . » ثم سار خطوات وقد سكن جَنَانُه قليلاً ، وألقى بنفسه على الفراش ، وأغمض عينيه ، ودفن وجهه فى الوسادة ، وخُيل له أنه يرى ما بداخل وجدانه

بوضوح أكبر . «أجل ، يجب أن أرحل هذه الليلة بالذات . المسيح نفسه يأمر بتفادى الفضيحة . لأوقظ أمى ولأبلغها بالأمر ولنرحل معًا إنْ أمكن . ولأطلب منها أن تحملنى معها مرة ثانية ـ كما فعلت حين كنت طفلا ـ لأتمكن من بدء حياة جديدة » .

ولكنه شعر بأن هذا كله هَوَس ، وأن الشجاعة لن تُواتيه للإقدام على ما كان يدور برأسه ، ثم ما الداعى ؟ لقد كان فى الواقع واثقاً من أن « آنييس » لن تنفذ تهديدها . وإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ الرحيل إذن ؟ لم يعد هناك ما يتهدده ، ولم يكن هناك حتى خطر العودة إليها وإذلال نفسه أمامها . لقد تغلب على المحنة وانقضى الأمر . ولكن الهوس استحوذ عليه من جديد

ـ لابد لك مع ذلك يا « باولو » من الرحيل . أَيْقِظْ أُمَّك وارحلا معاً ، ألا تعرف من الذى يحدثك ؟ إنه أنا ، « آنييس » . أتظن حقًّا أننى لن أنفذ وعيدى ؟ رُبَّما لا أنفذ ومع ذلك فإننى أدعوك أن ترحل . أتعتقد أنك انفصلت عنى ؟ أنا موجودة بداخلك . أنا غرس حياتك السيىء . إنْ بقيت هنا فلن أغادرك لحظة ، سأكون الظل تحت قدميك، الحائط بينك وبين أمك ، بينك وبين نفسك . اذهب !

وحاول أن يخفف من ثائرتها لكى يستريح ضميره فقال :

ـ إنى ذاهب . أجل . ألا تسمعيننى ؟ ذاهب . ولنذهب معًا . أنت بداخلى ، أكثر حياة منى ، لا تراعى ، وكُفى عن تعذيبى . نحن معًا ، رفيقان فى السفر ، والزمن يجمعنا نحو الأبدية . كنا منقسمين وبعيدين حين كانت أعيننا تنظر إلى أعيننا ، وشفاهنا تلتقى فى القبلات ، منقسمين وبعيدين . الآن فقط يبدأ التحامنا الحقيقى : فى كرهك وفى صبرى ، وفى عُدولى .

ثم بدأ الإعياء يغلبه . وسمع آهة مستمرة مستكينة خارج نافذته كأنها صادرة عن يمامة تبحث عن أليفها ، وبدت له هذه الآهة ـ بما ينبض فيها من ألم وشهوة ـ آهة الليل ذاته ، الليل الأبيض بضوء القمر تغطيه غلالة فى سماء ملأتها سحب صغيرة تشبه الزغب . ثم تنبه إلى أنه هو الذى كان يتأوه . لكن النعاس غشيه . أمَّا الخوف والألم والذكريات فقد نأت . وبدا له أنه على سفر حقيقى ممتطياً صهوة جواد ، وأنه يصعد فى طريق الهضبة الزراعى . كان كل شىء هادئاً واضحاً عبر أشجار الماء الصفراء الكبيرة . وكانت هناك فرجة مغطاة بأعشاب يانعة الخضرة تريح العين ، كانت النسور الرابضة فوق الصخور تنظر إلى الأرض . وفجأة وقف حارس الحقول أمامه وحيَّاه ، ثم وضع كتابا مفتوحًا على سرجه . وأخذ هو يقرأ فى الكتاب رسالة القديس بولس إلى أهل كورنثوس . فى النقطة التى وقف عندها فى الليلة السابقة : « يعرف الرب أفكار الحكماء ، ويعلم أنها باطلة » .

كان القسيس يحتفل بقداس يوم الأحد عادة فى موعد متأخر عن موعد قداس الأيام الأخرى ، ولكنه أراد أن يذهب إلى الكنيسة فى وقت مبكر لتلقى اعتراف النساء اللاتى كنُ يرِدْنَ التناول بعدها ، ولهذا نادته أمه فى الساعة المعتادة . كان قد نام منذ ساعات قليلة نومًا ثقيلاً أعمى . واستيقظ بدون أن يتذكر شيئاً ، ولكن برغبة غامضة فى معاودة النوم . وأصرت دقات الباب مع ذلك على إيقاظه ، وتَذَكَّر .

ونهض للتوّ مرعوبًا وشبه مشلول . وقال لنفسه : « آنييس » ستأتى إلى الكنيسة وستوجه إلىّ الاتهام أمام الشعب » . ولَمْ يدر لِمَ أيقن بأنها ستنفذ تهديدها ؟ ربما أيقن بهذا فى نفسه خلال النوم . . وألقى نفسه على المقعد بشعور من العجز ، وبركبتين ميتتين . وغشيت ذهنه سحابة مختلطة ،

وتوهم أنه مازالت هناك فرصة لتفادى الفضيحة ، باستطاعته أن يدعى المرض ويعتذر عن الذهاب للاحتفال بالقداس ، وسيتيح له ذلك أن يكسب بعض الوقت ، وأن يحاول إثْنَاء « آنييس » عن عزمها ، ولكن مجرد فكرة إعادة الدراما من جديد ، والدخول مرة ثانية فى شقاء اليوم السابق زَادَا من وقع همه . ونهض ، وبدا له أنه ينطح السماء بجبهته عبر زجاج النافذة .

وضرب بقدمه على الأرض ليبعد الحذر الذى كان يمنعه من الحركة ، ثم ارتدى ثيابه وشد الحزام بقوة حول وسطه ، وَدَثَّـرَ نفسه جيدًا فى ملابسه كالصيادين الذين رآهم يشدون جعبات خرطوش الرصاص حول وسطهم ويغطون أنفسهم جيدًا بالمعطف قبل ذهابهم إلى الجبل . وفتح النافذة ، ومال بجسمه عليها ، وبدا له أنه يفتح عينيه أخيرًا على ضوء الصباح بعد كابوس الليل ، وأنه خرج أخيرًا من سجن نفسه ، وعقد صلحاً مع المخلوقات فى الخارج . على أنه كان صلحاً اضطراريًّا تملؤُه حفيظة خفية . وما إن تراجع خطوة وانتقل من جو الخارج الندى إلى جو غرفته الدافىء المعطر حتى أمسك الخوف بتلابيبه ورده إلى حنايا نفسه . عندها تَهَرَّبَ من جديد ، وأخذ يفكر فيما سيقوله لأمه .

وسمع صوتها بحشرجته الخفيفة وهى تطرد الدجاجات التى كانت تريد غزو غرفة الطعام ، وصوت رفرفة أجنحة الدجاجات وهى تبتعد . وتناهت إليه رائحة القهوة المغلية مع رائحة العشب فى الخارج . وفى الطريق الصغير الواقع تحت الجسر كان يسمع صوت الأجراس الصغيرة المعلقة فى رقاب الماعز التى تُقاد إلى المرعى ، وبَدَا رنين هذه الأجراس صَدًى طفولياً لجرس الكنيسة البهيج ـ برغم رقابته ـ الذى كان « أنطيوكو » يدعو به الناس من برج الكنيسة الصغيرة للاستيقاظ والذهاب لحضور القداس .

كان كل شيء هادئاً ورقيقاً يسبح في ضوء الفجر الذي خالطه الاحمرار . وتذكر هو صحة أن شيئاً لا يمنعه من الخروج ومن الذهاب إلى الكنيسة ، ومن بدء حياته من جديد ، ومع ذلك فها هو ذا الخوف ينتابه مرة أخرى ، الخوف من المضي قدماً والخوف من الرجوع إلى الوراء . وبدا له وهو واقف على عتبة بيته أنه أشبه بمن يقف على قمة جبل : الصعود مستحيل ، وتحت قدميه هاوية ليس لها قرار . كانت لحظة تجل عن الوصف ، شعر خلالها بقلبه يضطرم في صدره ، وخامره فجأة إحساس جسدي بأنه يشرف حقيقة على هاوية سحيقة ، في قاعها عجلة يدفعها تيار متلاطم علاه الزبد ، تدور بلا غاية ، إلاَّ أن تنغمس في الماء الذي يتابع طريقه .

وبدا له أن الذي يدور هكذا بلا طائل في دوامة الحياة هو قلبه . وأوصد الباب وعاد إلى الداخل ، وجلس على الدَّرَج الصغير كما فعلت الأم في الليلة السابقة . عدل عن محاولة إيجاد حلٍّ المشكلة ، وانتظر أن يأتي أحد لمساعدته . ووجدته أمه على هذه الحال ، وحين رآها قام فجأة بشعور مَنِ ٱلتَاثَ ، ولكنه كان في قرارة نفسه يحس بالضعة أمام ضميرها ، لفرط يقينه من أنها ستشير عليه بالمضي في الطريق الذي اختارته له . وكان أول ما رآه هو وجهها المتجهم وقد شحب ، وكاد الكرب يضفي عليه مسحة من جمال . وسألته :

ـ مالذي أبقاكَ هنا ، يا « باولو » ؟ أأنت مريض ؟

ورد عليها وهو يتجه إلى الباب دون أن يلتفت :

ـ لَمْ أُرِدْ يا أمي أن أوقظك ليلة أمس ، فقد كان الوقت متأخرًا . لقد ذهبت إلى ذلك المكان . ونظرت إليه الأم . واسترد وجهها تعبيره العادي .

وفى لحظة الصمت القصير سمع صوت جرس الكنيسة بدقات سريعة متلاحقة ، وكأنه فوق البيت ، وقال :

ـ هى بخير . كل مافى الأمر أنها فى أزمة ، وهى تريد أن أترك البلدة فورًا ، وقد هددتنى ـ إنْ لمْ أفعل ـ بالمجىء إلى الكنيسة وإثارة فضيحة والتشهير بى أمام الشعب !

ولزمت الأم الصمت ، ولكنه شعر بها وراءه ثابتة كالطَّوْد تحثه على السير إلى الأمام ، كما كانت تفعل وهى تعلمه المشى . واستأنف قائلاً :

ـ كانت تريد أن أرحل هذه الليلة بالذات . . و تقول : إننى إنْ بقيتُ فستأتى هذا الصباح إلى الكنيسة . أنا لا أخشاها ، وعلى كُلٍّ ، أعتقد أنها لن تأتى .

وفتح الباب . واهتزت شبكة من الضوء الفضى فى المدخل الرمادى ، وبدا أنها تصطاده هو وأمه كما يُصَاد السمك ، وتجتذبه إلى الخارج . وسار متجهًا إلى الكنيسة لا يلوى على شىء ، أمَّا الأم فقد بقيت أمام الباب تنظر إليه وهو يبتعد . لم تفتح فمها ولكن رجفة خفيفة حاولت من جديد أن ترخى تماسك ذقنها القوية . وفجأة صعدت إلى غرفتها ولبست ثيابها على عجل لكى تذهب هى الأخرى إلى الكنيسة . هى الأخرى شدت حزامها وسارت بعزم وإرادة . ولم تنس قبل أن تغادر البيت أن تهش الفراخ ، وتسحب إناء القهوة من النار ، وتغلق الباب . أخيرًا أحكمت رَبْطَ شالها حول ذقتها وفمها ، فإن الرعدة التى انتابتها بالرغم من كل ما بذلته من جهد لمقاومتها لم تبرح جسمها . وسارت إلى الكنيسة ، وحَيَّتْ ـ وهى على هذه الصورة ـ النسوة اللاتى صعدن من البلدة ، والرجال العجائز الذين كانوا

واقفين منذ فترة أمام حاجز الميدان الحجرى ، وأطراف معاطفهم السوداء التى تغطى رءوسهم بارزة كالخيام فى سماء الأفق المائلة إلى الحُمْرَة .

ودخل «باولو» الكنيسة . وكان بعض التائبين مجتمعين حول كرسى الاعتراف ، وقد اتخذت امرأة سبقت غيرها فى الحضور مكانها على المنصة ، فى حين كان الآخرون ينتظرون دورهم . كذلك كان بعض الصبية الذين وصلوا إلى الكنيسة مبكرين يحيطون بنينامازيا التى كانت راكعة على الأرض تحت حوض الماء المقدس وبَدَتْ كأنها تسنده برأسها الشيطانى الصغير . واصطدم القس بالصبية فى مسيرته الشاردة ، وأثَارَهُ الطفلة التى حرصت أمها على وضعها فى هذا المكان لكى يراها الجميع ، وبدا له أن هذه الطفلة تلازمه فى كل خطوة يخطوها كعقبةٍ فى طريقه ، وأمْرٍ يستحق عليه اللوم . وقال بصوت قوى تردد فى أنحاء الكنيسة :

ـ قوموا كلكم من هنا .

وفجأة اتسعت دائرة الأطفال وانتقلت إلى مكان أبعد . وظلت «نينامازيا» فى الوسط ، ولكن الأطفال اتخذوا أماكنهم بصورة تجعلها على مرأى من جميع من كانوا فى الكنيسة . وكانت كل النساء يُدِرْنَ رءوسهن ناحيتها دون التوقف عن تأدية الصلاة ، وبدا وكأنها هى معبود الكنيسة الصغيرة ، البربرية الغارقة فى رائحة الفلاحين الوحشية ، وفى ندى الصبح الريفى المُتَرِب .

وسار هو أمامهم ، ولكن بهلع متزايد . ولمست جُبته المقعد الذى كانت «آنييس» تركع فيه عادة ، وهو مقعد قديم مملوك لأسرتها ، بأسفله كرسى للركوع منحوت . وقَاسَ بعينيه ثم بخطواته المسافة التى تفصل هذا المقعد

عن المذبح ، وقال لنفسه : حين أراها تنهض لتنفذ مشروعها المشئوم سيتاح لى الوقت للانسحاب إلى الغرفة الصغيرة و لما دخل الغرفة عرته قشعريرة . كان « أنطيوكو» قد نزل عَدْوًا من برج الجرس ليساعده على ارتداء ملابس القداس ، وكان ينتظره بعد أن فتح الصوان بوجه حاد ، كان أكثر شحوبًا من المعتاد ، كساه تعبير تراجيدى ، وبدا عليه أنه مستغرق تماماً فى مُهمته المستقبلية التى تقررت فى الليلة السابقة ، ولكن القناع كان يهتز على وجهه الذى أكسبه جو الجرس نضارة وصحة ، فقد كانت عيناه تلمعان من الفرح تحت جفنيه المرتخيين ، وكان يجز على أسنانه تحت شفتيه المزمومتين ليمنع نفسه من الضحك . كان قلبه يدق ، وكانت سريرته عامرة بضوء هذا الصباح ، صباح العيد ، بهمساته وبهجته . على أنه رفع عينيه فجأة وهو يضع دانتلا القميص على معصم القسيس ، فقد لفت نظره أن اليد كانت ترتعش تحت الدانتلا . كذلك كان الوجه الموقر شاحباً ومتغيرًا . وأظلمت عينا « أنطيوكو » وسأل :

ـ أتراك مريضاً ؟

أجل ، كان القس مريضاً . وبرغم أنه أشار برأسه علامة النفى فقد ملأت فمه جرعة من اللعاب المالح بدت له كأنها جرعة من الدم ، ولكنَّ وَمْضَةَ أملٍ ظهرت فى قاع وعكته . وقال لنفسه : « سأسقط ميتاً . سيتحطم قلبى . بهذا على الأقل سينتهى كل شىء» ونزل ليتلقى اعتراف النساء ، ولمح أمه فى آخر الكنيسة بجوار الباب . بدت رابطة الجأش ، قوية ، وهى راكعة على ركبتيها وكأنها تحرس مدخل الكنيسة والكنيسة كلها ، وكأنها تستعد لدعمها ومنعها من الانهيار إنْ تعرضت دعائمها لهذا الخطر . ولكن منظر أمه لم يعد إليه شجاعته ، وكانت ومضة الأمل فى الموت تنمو بداخله

وتقبض أحشاءه ، وتخنق قلبه وحين دخل إلى كرسى الاعتراف هدأت نفسه قليلاً ، وبدا له أنه دخل القبر بالفعل . كان على الأقل مختفياً فيه عن الأنظار ، وكان باستطاعته أن يرى بشاعته وجهًا لوجه . وكانت همسات النساء الخفيفة التى تدفعها زفراتهن وأنفاسهن الدافئة خلف الحاجز تبدو له كحفيف أعشاب الجسر وهى تتحرك عند مرور السحالى . وكانت « آنييس » هناك من جديد ، مُقْفِلَة على نفسها فى هذا المخبأ الذى كثيرًا ما حملها معه فيه بأفكاره . وكانت أنفاس النسوة الشابات ورائحة شعورهن وملابسهن المعطرة بماء الخزامى تعبر عن لهفته ، وتضاعف من التياعه . وغفر لهن جميع ذنوبهن ، ودار بخلده أنه قد يُعرض بدوره على رأفتهن بعد قليل . ثم استبدت به رغبة فى الخروج ورؤية ما إذا كانت « آنييس » قد وصلت أم لا . . لكن مقعدها كان شاغراً .

لعلها لم تحضر أو اتخذت مكانها ـ كما كانت تفعل أحياناً ـ فى آخر الكنيسة مستندة إلى كرسى تحضره لها خادمتها . واستدار فى اتجاه آخر الكنيسة ولكنه لم يَرَ سوى شكل أمه الناحل . وبدا له وهو يركع مُبْتَدِئاً القداس أن روحه هى الأخرى كانت تنحنى أمام الرب وهى ترتدى ألمها كما كان هو يرتدى قميصَ الكاهن ورداءه . وقرر ألاَّ ينظر حوله ، وأن يفحص عينيه كلما كان عليه أن يستدير ليبارك المصلين ، وخُيل إليه أنه يسير صاعدًا كالمسيح فى جبل الجلجثة : وأحس بتقلص عصبى خفيف يعتصر عنقه كلما اتجه إلى المصلين ويضطره إلى إغماض عينيه ، وكأنه يرفض النظر فى الهوة السحيقة الفاغرة تحت قدميه . لكن المقعد المنقوش كان يبدو لعينيه بإصرار عبر جفنيه المرتجفين وعليه شكل « آنييس » الأسود على خلفية الكنيسة الرمادية .

كانت « آنيس » هناك فعلاً ، وكانت ترتدى ملابس سوداء ، وتغطى وجهها الأبيض العاجى بغلالة سوداء . وكانت حواف كتاب حلاتها المذهبة تلمع بين أصابعها فى قفازها الأسود . وبدا أنها تقرأ ،لكنها لم تكن تقلب الصفحات . وكانت خادمتها راكعة بجوارها على الأرض كالأمَة ورأسها يمس المقعد . وكانت تدير عينيها كالكلب الأمين من آنٍ لآخر إلى سيدتها ، وكأنها تعرف أفكارها الحزينة وتسهر عليها .

ورأى كل شىء من مكانه العالى أمام المذبح ، ولم يعد يأمل فى شىء ولو أن قلبه كان يقول له فى صميمه : إن من المحال أن تنفذ « آنييس » تهديدها الجنونى . وبينما كان يقلب صفحات الإنجيل خنقته زفرة تلاوته، وشعر بالعرق يغطى جسمه كله ، واضطر إلى الاستناد بيده على الكتاب ، وخُيل إليه أنه سيفقد الوعى ، ولكنه ثاب إلى رشده بعد لحظة . ونظر إليه «أنطيوكو» وقد تنبه إلى تقدم المرض فى هذا الوجه الذى كان يبدو كوجه إنسان ميت ، واقترب منه ليسنده ، مديًرا عينيه كل حين إلى العجائز الذين كانت لحاهم تبرز من خلال الحاجز ، لعل أحدهم يكون قد تنبه إلى وعكة القس ، لكنّ أحدًا لم يتنبه إليها حتى الأم الراسخة فى مكانها كانت تصلى وتنتظر بدون أن تفطن إلى ما ألمّ بابنها . واقترب « أنطيوكو » من القس بحدب متزايد لفت نظره ، وجعله يحدق فيه بخوف ، وأجاب الفتى بعينيه اليقظتين وبحركة سريعة من شفتيه كأنما يقول له : أناهنا ، تقدم ! » .

وتقدم هو صاعدًا إلى مرتقى آلامه ، وتدفق شىء من الدم إلى قلبه ، وتباطأت أعصابه ، واستسلم بكليته إلى الخطر كالغريق الذى يتمدد على سطح الماء لأنه فقد القدرة على مقاومة الموج ، وتناول القربان ، وسالت

جرعة النبيذ الصغيرة داخل صدره وكأنها - حقيقة - نهر من دم . أجل ، شعر بقوة ، وعاد إلى الحياة وقلبه مفعم بوجود الرب .

وبينما كان ينزل تجاه النساء رأى من جديد شكل « آنييس » وهى جالسة على مقعدها ، بارزة بين موجة من الرءوس المطأطئة ، وحنت هى الأخرى رأسها على راحتيها . ربما كانت تستجمع شجاعتها قبل أن تتحرك . وشعر نحوها فجأة بشفقة لا حَدَّ لها ، وَوَدَّ لو نزل إلى حيث هى وغفر لها ، وقَدَّمَ لها القربان كما يقدمه لامرأة تحتضر . وتشجع وهو يقرب القربان من أفواه النساء ، ولكن أصابعه كانت ترتعش .

وما كادت عملية التناول تنتهى حتى بدأ فلاح عجوز نشيدًا دينيًّا . وصَاحَبَهُ المؤمنون بصوت خافت ، ثم كرروا قراءة النشيد مرتين بأصوات مرتفعة . كان نشيدًا بدائياً رتيباً ، قديماً قدم الصلوات الأولى التى كان يرتلها رجال فى غابات تكاد تكون غير مأهولة . قديم ورتيب كصوت الأمواج على شاطىء مهجور . ولكن هذه الهَمْهَمة التى أحاطت بمقعد « آنييس » الأسود كانت كافية لكى تشعر بأنها خرجت حقيقة ، على حين فجأة ، بعد ليلة قضتها وهى تجرى لاهثة ساعة الفجر فى غابة بدائية ، إلى شاطىء البحر على تلال من الرمل تزينها الزنابق الوحشية عديمة الرائحة .

شىء مّا صعد إليهامن أعماق كيانها ، وصعدت أحشاؤها حتى بلغت حنجرتها ، وانقلب كل شىء فى داخلها كأنها كانت تسير منذ فترة على رأسها إلى الوراء ، ثم عادت الآن إلى وضعها الطبيعى . كل ماضيها وماضى جنسها كانا يصعدان إلى أعلى ويذكرانها بهذا الغناء الذى اشترك فيه العجائز والنسوة ، بصوت مرضعتها وخدمها ، صوت الرجال والنساء الذين بنوا وأثثوا بيتها ، وزرعوا بستانها ، ونسجوا قماش قماطها وهى رضيعة فى المهد .

كيف يجوز أن تتهم نفسها أمام هؤلاء الناس الذين كانوا ولا يزالون يعتبرونها سيدتهم ، ويعتقدون أنها أكثر نقاءً حتى من القس الواقف أمام المذبح . وأحست هى الأخرى بوجود الرب حولها وداخلها فى لوعتها ذاتها ، كانت تعرف تمامًا أن العقاب الذى تريد أن تُنزله بالرجل الذى زَلَّتْ معه كان عقاباً لها هى نفسها ، ولكن الرب الرحيم كان يحدثها الآن بصوت العجائز والنساء والصغار الأبرياء ويحذرها من نفسها ، ويشير عليها بإنقاذ نفسها . مرت أمامها كل أيامها الوحيدة مع النشيد الذى يرتله شعبها . ورأت نفسها وهى طفلة ثم وهى صبية ثم وهى امرأة فى نفس هذه الكنيسة ونفس هذا المقعد الذى بَرَتْهُ رُكَبُ أسْلافِها ومرافقهم . كانت الكنيسة ذاتها ـ إلى حد ما ـ ملكاً لأسرتها ، فالذى بناها هو أحد أسلافها ، كما أن أحد أجدادها كان هو ـ كما تقول الأسطورة ـ الذى استرد تمثال العذراء من يد البربر وأعاده إلى البلدة . لقد وُلدت ونشأت سط هذه الأساطير فى جو من العظمة كان يصنع حاجزًا بينها وبين عامة أهل « آر » ، ويتركها مع ذلك فى وسطهم مقفلة على نفسها كاللؤلؤة داخل المحارة الخشنة . كيف يسوغ لها إذن أن تتهم نفسها أمام شعبها ؟ .

ولكن شعورها فى الوقت ذاته بأنها سيدة هذا المكان المقدس ، هذا الشعور ذاته جعل وجود الرجل ـ الذى كان شريكها فى الخطيئة ، والذى يقف الآن أمام المذبح وقد لبس قناع القداسة الزائف ، عاليًا ومضيئاً فوقها ، والقارورة المقدسة بين يديه ، وهى منحنية عند قدميه ـ شيئاً لاقِبَل لها بتحمله . امتلأ قلبها من جديد بالغضب والخوف . وعلا ترتيل الشعب من حولها برعدة وكأنه يتضرع من قاع الهاوية المظلمة طالباً منها الخلاص والعدالة . والرب ذاته كان يخاطبها بتجهم وصرامة ، آمِرًا إياها بأن تطرد من

حرم المعبد خادمه الدجال . وأحست بقشعريرة البرد من عرق مميت ، واهتزت ركبتاها اللتان كانت تُلامسان المعقد ، لكنها لم تحنِ رأسها ، بل ظلت تتابع حركات القسيس أمام المذبح . وشعرت بشيء كالفحيح يخرج من فمها ويتجه إليه رأسا ويداهمه ويغطيه بالثلج الذى كان يغطيها .

وأحس هو بأنفاس الموت هذه . كانت أطراف أصابعه متجمدة كشأنه فى الصباح من أيام شهر يناير ، وكانت تقلصات رقبته تعتصره أكثر وأكثر . وحين استدار ليبارك المصلين رأى « آنييس » تسدد إليه نظرها . والتقت أعينهما فى لحظة خاطفة من الضوء ، وتذكر فى هذه اللحظة ـ كالغرقى الذين يهوون إلى الأعماق ـ كل بهجة حياته ، البهجة الوحيدة ، التى جاءت كلها من حبها ، من نظرتها الأولى ، ومن قبلتها الأولى . ورآها تقوم من مكانها والكتاب بين يديها . وصدرت منه آهة وهو يقول راكعاً على ركبتيه :

ـ لتكن مشيئتك يار ب!

وبدا له أنه حقيقة فى بستان الزيتون ، وقد اقتربت ساعة المصير المحتوم . وصلى بصوت عالٍ وانتظر ، وبدا له أنه يستمع بين غمغمة الصلوات إلى خطوة « آنييس» وهى تتقدم إلى المذبح . وقال لنفسه : « هاهى ذى قامت من المقعد . إنها تتحرك فى المسافة التى تفصل مقعدها عن المذبح . . هذه هى . . إنها تسير . . الكل ينظرون إليها . . هاهى ذى قد وصلت عند منكبى . . » وبلغ من قوة هذا الوهم فى روعه أن تَوَقَّفَ صوته فى حنجرته . ورأى « أنطيوكو » ـ وقد بدأ يطفىء الشموع ـ يستدير فجأة وينظر فى اتجاهه. لحظتها لم يعد لديه شك : أنها هنا عند كتفيه ، على درج المذبح . ونهض . وبدا له من الوهم أنه يمس عقد قبة الكنيسة برأسه . وشعر بأنه انسحق تماماً . وتخاذلت ركبتاه من جديد ، ولكنه نجح بعد جهد فى صعود

الدرج الصغير والاتجاه إلى المذبح لاستعادة حقة القربان . استدار ليدخل إلى غرفة الملابس والأدوات المقدسة ، وإذا به يرى « آنييس » ، كانت قد قطعت المسافة بين مقعدها الحاجز وتهيأت لصعود الدرج . وهتف فى قلبه :

- ربى ، إلهى ، لِمَ لَمْ تأذن لى بالموت ؟

وحنى رأسه على حقة القربان ، وبدا له أنه يقدم عنقه الشاحب لضربة البلطة التى كان مفروضا أن تنغرز فيه . ولكنه حين تقدم فى اتجاه باب الغرفة الصغيرة رأى « آنييس » تنحنى هى الأخرى وتركع على الدرج تحت الحاجز . لقد صدمت بقدمها الدرجة الأولى تحت الحاجز ثم انحنت على ركبتيها وكأنَّ حائطاً قد ارتفع فجأة أمامها . لم تتمكن من التقدم أكثر من ذلك . وغَشَّى عينيها حجابٌ كثيف ، ولم تستطع رؤية الدرج والبساط المفروش عند قدم المذبح والمذبح ذاته والزهور التى وُضعت عليه والمصباح المضاء إلا بعد مرور لحظات . كان القس قد اختفى وحَلَّ محله شعاع مائل من الشمس عبر فضاء الكنيسة ووضع قطعة من الذهب على البساط .

ورسمت « آنييس » علامة الصليب وقامت واتجهت إلى باب الخروج ، وفى إثرها الخادمة . واستدار الرجال العجائز والنساء والأطفال ينظرون إليها وابتسموا لها ، وباركوها بأعينهم ، باعتبارها سيدتهم ، والشخص الوحيد الذى يرمز فى نظرهم للجمال والإيمان ، ولكنها كانت بعيدة كل البعد عنهم وعن شقائهم ، وهى فى وسطهم كزهرة النسرين وسط الأشواك . ومدت إليها الخادمة - قبل أن تخرج - قطرات من الماء المقدس بطرف أصابعها وانحنت عند الباب لتنفض بيدها تراب درج المذبح الذى عَلِقَ بثوبها .

وعندما انتصبت الخادمة رأت سيدتها وقد زاد شحوب وجهها بشكل مخيف ، ورأتها تتجه بنظرها إلى ركن الكنيسة الذى كانت تصلى فيه أم

القسيس . كانت الأم جالسة لا تتحرك ، وظهرها مستند إلى الحائط ، ورأسها منكس على صدرها . وبدت كأنها تسند الحائط بكل ما أوتيت من قوة وكأنها تخشى أن يَنْدَكَّ وينهار .

ورأت إحدى النساء نظرات الاهتمام فى أعين «آنييس» والخادمة ، فالتفتت هى الأخرى لتنظر إلى أم القسيس ، ثم اقتربت منها بقفزةٍ ، ونَادَتْهَا برفق ، ورفعت وجهها بيديها . كانت عينا الأم مفتوحتين نصف فتحة ، ولكنهما كانتا كعينين من زجاج ، وقد ارتفعت حدقتاهما وَاخْتَفَتَا تحت الجفنين . وسقطت المسبحة من يدها ، وانحنى رأسها ناحية المرأة التى تسندها والتى هتفت :

ـ ماتت !

وفى لحظة نهض الجميع وهرعوا إلى مؤخرة الكنيسة . كان « باولو » فى هذه الأثناء قد دخل إلى غرفة الأدوات المقدسة مع « أنطيوكو » الذى كان يحمل كتاب الأناجيل . كان يرتعد من البرد ومن السعادة ، وخُيل إليه أنه كمن نجا من الغرق . وأحس بحاجة إلى التحرك ليطرد أصواتًا مختلطة كانت خفيفة فى البداية ، ثم أخذت تزداد . وأخرج « أنطيوكو» رأسه من الباب ورأى الناس متجمهرين فى مؤخرة الكنيسة وكأن أبوابها قد انسدت ، ولكن أحد الرجال المسنين صعد فى هذه اللحظة درجات المذبح وجعل يشير بيديه إشارات غير مفهومة ويقول :

ـ أم القسيس ليست بخير . هى مريضة !

وبسرعة البرق جرى « باولو » إلى أمه وهو لايزال فى قميص القداس . وركع أمامها على ركبتيه وهى مسجاة على أرض الكنيسة ورأسها

على حِجْر إحدى النساء والناس من حولهم يتزاحمون ليملَئُوا أعينهم من المنظر . ونادى « باولو» :

ـ أمى ، أمى !

ولكن وجهها كان جامدًا متجهماً ، وكانت عيناها شبه مغمضتين ، وكانت أسنانها لا تزال مشدودة فى محاولة لمنع الألم من الصراخ . وفهم «باولو» فجأة أن أمه فارقت الحياة من الألم ذاته ومن الرعب ذاته اللذين استطاع هو التغلب عليهما .

وجز هو أيضاً على أسنانه حين رفع عينيه لكيلا يصرخ ، ورأى أمامه سحابة مختلطة من الناس الذين تجمعوا حوله . وفى هذه السحابة التقت عيناه بعينى « آنييس» .

جنيف فى ٤/ ١/ ١٩٩٥



## ديليدا .. وروايتها الأم

ولدت « جراتسيا ديليدا » فى مدينة « نوورو » بجزيرة « سردينيا » الإيطالية، سنة ١٨٧١ فى أسرة محافظة ، متوسطة الحال ، ودرست فى المدارس حتى الصف الرابع الابتدائى ، ولم يكن يُسمح للبنات فى الجزيرة وقتها بتجاوز هذه المرحلة الدراسية . وكانت ذات خيال خصب ، وكان لها منذ طفولتها وَلَعٌ شديد بالقراءة ، وشجع والدها ـ الذى كان تاجرًا مثقفاً ـ هذا الاتجاه ، وبدأت بقراءة القصص والروايات التى كانت تنشرها الصحف والمجلات المحلية ، ثم اتسعت دائرة قراءاتها تدريجيًّا .

وكانت أمنيتها منذ الصغر أن تكون كاتبة وشاعرة .

وقد بدأت مؤلفتنا محاولاتها الأولى فى قَرْض الشعر ، وفى كتابة القصة القصيرة فى سن السابعة عشرة ، وكانت ترسل إنتاجها الأدبى إلى الصحف المحلية ، وقد نشرت أولى رواياتها على حلقات فى إحدى الصحف المحلية وهى فى سن الخامسة والعشرين .

وبرغم تعلق « جراتسيا ديليدا » بسردينيا ، فإنها كانت تتوق إلى الانتقال إلى إيطاليا الأم ؛ لتوسع أفقها ، ولتنهلَ من مَناهِل الثقافة التى لم تُتَحْ لها فى

جزيرتها ، وقد أتيحت لها هذه الفرصة حين انتقلت إلى مدينة « كالياري » وتزوجت عام ١٩٠٠ من موظف في وزارة المالية ، وانتقلت معه إلى روما .

وتدور معظم روايات المؤلفة حول موضوع « الحُب المُحَرَّم » أو « الحب غير المتكافيء اجتماعيًا » . كانت جراتسيا ديليدا «غزيرة الإنتاج ، فقد صدر لها خمسون كتاباً تضم أشعارها وقصصها ورواياتها . وقد مُنِحَتْ جائزة نوبل للأدب في عام ١٩٢٦ ، وتوفيت عام ١٩٣٦ .

**من أهم رواياتها :**

**إلياس بورتولو ( ١٩٠٣)**

مادلينا زوجة «بيترو » المريض ، تقع في غرام « إلياس » أخي زوجها وتحاصره بحبها ، فيقرر أن يكون قسيساً . . ولكنه يعلم أن « مادلينا » حامل منه ، ويموت «بيترو » ، ويخلو لإلياس الجو للاقتران بها ، وتتوسل هي له أن يتزوجها ، ولكنه يرفض ذلك .

**النبات المتسلق( ١٩٠٦ )**

«آنييسا « فتاة أحضرها إلى بلدة « باروينى » شحاذ عجوز ، مات فجأة في ظروف غامضة ، تبنتها أسرة « ويتشرشي » .

**سر الرجل ( ١٩٢١)**

رجل اختار لنفسه أن يعيش وحيداً في بيت بمنطقة نائية ، يرى بقلق عمالاً يبنون بيتاً صغيراً بجوار بيته ، ويتضح أن صاحب هذا البيت رجل كبير السن ، وله زوجة شابة ، ومنظر هذه المرأة يُوَلِّدُ لدى البطل اضطرابا وأهاماً تجعله يحس بالخطر على نفسه .

**العجوز والشاب والفتاة (١٩٣٤):**

«لوقا » خادم العجوز «ميليس » ، وهو ابن حاكم إقليم مجاور ، هجر بيت أبيه هرباً من تسلطه . وهى تبين العلاقة بين «لوقا » و « فرنشسكا » ابنة أخ العجوز ، وهى فتاة تتميز بقوة الشخصية .

**كوزيما ( ١٩٣٦ ) :**

سيرتها الذاتية التى تحكى قصة طفولتها وشبابها ، وقد صدرت بعد وفاتها .

**رواية « الأم » :**

وهى تدور حول موضوع رهبانية القسس ، وهى ليست رواية أَحْدَاث بِقَدْر ما هى رواية أزمات نفسية عاشتها أم القسيس « باولو » حين اشتبهت فى أن ابنها ارتكب خطيئة الزِّنَى .

كانت « الأم » امرأة جاهلة ولكنها تعرف . صارحت ابنها باكتشافها ، وأخذت عليه عهدًا بأن يقطع صلته بآنييس ، ولكن عذاب ابنها جعلها تنظر إليه على أنه ضحية لقانون الكنيسة . وهزها أن « آنييس » هددت ابنها بفضحه فى القداس ، لكنها أسلمت الروح قبل فضحه .

وقد بدأت المؤلفة وصفها المباشر لأزمة الأم الأولى بالملاحظات التى لاحظتها الأم عن أحوال ابنها فى الفترة الأخيرة : اعتناؤه بمظهره ، وكثرة خروجه ليلاً ، وما أثارته هذه الملاحظات فى قلبها من مخاوف .

أما أزمة الأم الثانية فلم تخصص لها المؤلفة أى حيز ، برغم أنها كانت أشد وطأة بكثير من أزمتها الأولى ، فلا حوار ولا حديثَ من أحاديث النفس ، ولا أفكارَ ولا مقارنات ولا مقابلات منطقية ، وإنما وصف خارجى سريع

لحركاتها منذ علمت بتهديد « آنييس » لابنها ، إلى أن دخلت الكنيسة ، ثم وَصْف لها داخل الكنيسة وهى راكعة تصلى ، ثم بعد أن فارقت الحياة .

وكما استخدمت المؤلفة طريقة خَلْق الشخصيات كتصوير جانبى لأزمة الأم ، استخدمت الطريقة ذاتها لتصوير جانب من جوانب أزمة ابنها .

هذا، وقد جعلت المؤلفة أحداث روايتها تدور فى بلدة صغيرة مِنْ خَلْقِهَا أسمتها «آر » فى مكان لم تُسَمِّه ، ولا خلافَ بين الدَّارسين على أن وصف هذه البلدة والمنطقة المحيطة بها وأهلها ينطبق على وصف أى بلدة صغيرة فى جزيرة «سردينيا » مسقط رأس المؤلفة .

وقد وصفت المؤلفة كذلك بإشارات عديدة متفرقة أحوال مجتمع القرية ، فرجال القرية يشتغلون بالرعى ، والزراعة ، والصيد ، واستخراج الفحم ، وجمع الحطب ، ونساؤها يشتغلن بالنسج على الأنوال فى بيوتهن ، وأهل القرية فقراء وكسالى ، وهم متدينون، ولكن بطريقتهم الخاصة ، فهم يخرجون فى مظاهرة شعبية عظيمة ، يشعلون فيها نيران الفرح ، ويطلقون أعيرة نارية لاستقبال القس الجديد ، وينظرون إليه كأنه قديس ، أو كأنه المسيح .

وتلجأ المؤلفة إلى اللغة الشاعرية ؛لكى تلطف من قتامة هذه الرواية التى وصفها أحد النقاد الإيطاليين بأنها « أسود روايات المؤلفة ، التى لا تكتب إلا روايات سوداء » ووصف ناقد آخر هذه الرواية بتوترها المتصاعد ، وبقلة عدد شخصياتها ، ودقة رسم ملامح هذه الشخصيات ، وبأنها أقرب إلى نمط التراجيديات اليونانيه منها إلى الروايات الكلاسيكية . . ووصفها ناقد ثالث بأنها أقرب إلى القصة الطويلة منها إلى الرواية ؛ لأنها غير مقسمة إلى فصول ، ولأن أحداثها تدور خلال فترة لا تزيد على يوم ونصف .

وقد ترجمت القصة إلى لغات عديدة ، وهى من الأعمال التى مازالت تلقى إقبالاً لدى الجمهور الإيطالى برغم مرور ثلاثة أرباع القرن على نشرها لأول مرة . وقد صدرت آخر طبعتين بالإيطالية سنتى ١٩٩٢ و١٩٩٣ .

**محمود على مراد**



# المترجم

**محمود على مراد**

من مواليد ١٩٢٦

درس القانون والاقتصاد والأدب الإنجليزى والدراسات العربية والإسلامية فى جامعات الإسكندرية ، وجرينويل وليون بفرنسا .

عمل فى مصر موظفاً بالمحاكم المختلطة ،ثم بأحد البنوك الأجنبية التى أممت

ثم عمل مترجماً عربيًّا فى الأمم المتحدة بنيويورك ، ثم أستاذاً للترجمة العربية بمعهد الترجمة والترجمة الفورية بجامعة جنيف ومترجماً حرًّا فى المنظمات والمؤتمرات الدولية .

تغرب منذ ١٩٧٠ ، ويقيم فى سويسرا منذ ١٩٧٣ .

**أعماله المنشورة :**

ترجمة « المأساة الإسبانية» لتوماس كيد ، عن الإنجليزية ، دار الكاتب العربى ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٦٧ .

ترجمة « السيمفونية الرعوية » لأندريه جيد ، عن الفرنسية ، بالاشتراك مع أبى بكر محمد بكر ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

ترجمة مسرحيات : « بيوت الأرامل » ـ « العابث » ـ « السلاح والإنسان » ـ « كانديدا» ـ « رجل المقادير » ـ «تلميذ الشيطان » لجورج برناردشو ، عن الإنجليزية ضمن سلسلة « من المسرح العالمى » ، وزارة الإعلام الكويتية ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٥ .

ترجمة مجموعة قصص بعنوان « الأم الكبيرة » لجابرييل جارثيا ماركيز ، عن الإسبانية ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩٤ .

ترجمة « الإسلام المعاصر » للدكتور على مراد ، عن الفرنسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤ .

مسرحية : « شوية حنان » دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧

«برناردشو والإسلام » ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

---


رقم الإيـــداع

٩٨ / ٨٢٨٨

I.S.B.N
977 - 01 - 5752 - X








مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مائة وخمسون قرشاً




مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب